

أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ
بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)





مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العــــدد : ٩-١٠ ، السنـــــة : ٤٣

رمضان – شوال ١٤٤٠هـ ، مايو – يونيو ٢٠١٩م

الاشتراكات

- ثمن النسخة : ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولاراً
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولاراً

عنوان المجلة على الانترنت

Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس تحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المحتويات

كلمة المحرر

قراءة في مجزرة «نيوزيلندا»

في الأيام الأخيرة وقع هجوم إرهابي على مسجدين في «نيوزيلندا» استُشْهِد فيه مالايقل عن خمسين مصليًا علاوةً على الجرحى الذين نُقلوا إلى المستشفى على إثره، جريمةٌ بشعة لايجد الإنسان في القاموس كلمة أقل من أن يصفها بمجزرة هزت الكيان الإنساني قبل أن تقضَّ على المسلمين أنفسهم المضاجع. وكان الموقف النيوزيلندي على جميع المستويات: الرسمية والشعبية موقفًا يوصف بقمة الإنسانية وسمو الأخلاق، واعتبرت رئيسة وزرائها هذا العمل الإجرامي هجومًا إرهابيًّا على الإطلاق دون لأي، وبصراحةٍ ليس بعدها صراحةٌ، وهو موقف يستحق التقدير و التشجيع، إلا أنه لم يقف غيرُها من الدول موقفًا مماثلًا، فقد ران الصمتُ حتى على الدول الإسلامية – باستثناء واحدة أو اثنتين– التي ظلت تتريث الإيماءات والتلميحات من «الدول الصديقة» لإدلاء تصريح أو بيان في أمثال هذه المواقف الحرجة التي يتعرض لها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، بينما تتسارع هي إلى الشجب والإستنكار فيما إذا كانت الضحية من غير المسلمين. ولاشك أن ما حدث في المسجدين في «نيوزيلندا» كارثةٌ تركت غصَّةً في حلق كل من يحمل الحد الأدنى من الإنسانية والحضارة، وحرقةً في قلبه لايكاد يصبر عليها.

ونحن في غنًى عن الإشارة إلى أن موقف الدول بشكل عام كان لابدّ أن يكون مختلفًا تمامًا عن موقفها هذا فيما لو تعرض لهذه المجزرة مَن لاينتمي إلى الإسلام المفترى عليه، وإذًا لقام العالم كله و قَعَدَ، وانطلقت أبواقه وطبوله ضد المسلمين في كل مكان، ولعدَّ ذلك هجومًا إرهابيًّا بَشِعًا، وناقوس الخطر للأمن العالمي.

وأما الإعلام الهندي وبصفة خاصةٍ الصحف والجرائد الصادرة باللغة الهندوسيّة فيخضع الشطر الأكبر منها لفكرةٍ وأيديولوجيةٍ خاصةٍ مناوئةٍ للإسلام والمسلمين، وهذا النوع من الإعلام الهندي المصاب بـ«إسلاموفوبيا» لايرضيه إلا أن يصاب قراؤه بما أصيب به هو. فنجد معظم وسائل الإعلام الهندية تتحاشى عن إطلاق كلمة «الإرهاب» لدى تغطيتها لهذه الأحداث المروعة التي تعتبرها رئيسة الوزراء النيوزيلندية أسوأ يوم في تاريخ البلاد. والناظر في العناوين الصحفية الهندية البارزة – باستثناء واحدةٍ أو اثنتين– يتبين أنها تصف هذه الأحداث بحدثٍ عادي من إطلاق نارٍ على مجموعةٍ من الناس، وليست جريمة إرهابيةً. وبعض الصحف الهندية تعتبر هذه العملية الإجرامية صادرةً عن مجنون مخبول العقل، فكأن هذه الهجمات جاءت عن خلل في عقل الضالع فيها دون تخطيط مُسْبَق.

وهذا الموقف الذي يقفه الشطر الكبير من الإعلام الهندي يشف عن نفاقه وازدواجيته في التغطية للأحداث وعدائه الصارخ للإسلام والمسلمين.

وعليه يجب القول بأن الحكومات ووسائل الإعلام المحلية والعالمية ما لم تقف موقفًا حازمًا قويًّا محايدًا ضد الحركات الوالغة في دفع الإنسانية إلى هاوية من الدمار الشامل، ولم تأخذ على أيدي وحوشها الضواري التي تتربص بالأبرياء الغفلة الدوائرَ، وتنقضُّ عليهم باسم الدين أو العنصرية، يظلّ العالم برمته يتسارع إلى شفا جرف هار ينهار به عاجلا أو آجلا.

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد: ١٦/رجب١٤٤٠هـ =٢٤/مارس ٢٠١٩م).

رمضان وصيامه هما المنهج الرباني لإعداد المسلم إعدادًا مُجَدَّدًا

المسلمون في رحلتهم الحياتية الطويلة التي تعترضها الأوضاعُ والملابسات المختلفة، والأحزان والآلام، والمسرّات والأحلام، يَرِينُ عليهم أكدارُ أعمالهم وأشغالُهم، وتَصْرِفهم زخارفُ الدنيا دون إرادة منهم عن الوجهة الصحيحة رغمَ مداومتهم على الفرائض والعبادات، فلا يبقى صفاؤهم الروحيّ على الحالة المطلوبة، وإنما تَشُوبُه أوضارُ الحياة بمادّيَّتها القوية، وزيناتها الباطشة، وإغراءاتها الفَتَّانَة، فشاءت حكمةُ الله عَزَّ وجلَّ أن يجعل لهم مَوْسِمًا خاصًّا يرتاضون فيه بمُقَرَّرَات خاصة وخلالَ الأيّام المعدودة المحدودة، ويَتَدَرَّبُون فيه على المنهج العباديّ المُوَجَّه، فيعودون من جديد إلى حالتهم المطلوبة، وكيفيتهم المنشودة، من التقيّد بجميع الأوامر والنواهي، والرغبة في الإكثار من الذكر والتفكر، ويَنْشَطُون مُجَدَّدًا للمواظبة على العبادة والتلاوة، ويتركون مرة أخرى وراءهم جميعَ ما لاَمَسَهم من معاني الكسل والخمول والغفلة.

ويُعِينهم المَوْسِمُ بتأثيره الإيماني وجوّه الروحاني العامّ على تقربهم من الله، والتزلُّف إليه بالإنفاق والتصدّق على وجوه الخير، ويَتَلَذَّذُون خلالَه – الموسم – العبادةَ والذكرَ والاعتكافَ في المسجد، والاِطِّراحَ على عتبة الرحمن، وإحياءَ الليالي في الصلوات والتلاوات وترتيل القرآن الذي أُنْزِلَ في هذا الموسم، تَلَذُّذًا قد لا يجدونه في العام كله.

وهذا الموسمُ هو شهر رمضان الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ وفُرِضَ فيه الصيامُ، واسْتُحِبَّ فيه الركوعُ والقيامُ، وصُفِّدَ فيه مَرَدَةُ الشياطين، وأُعْتِقَ فيه العبادُ من النيران، ورُحِمَ فيه المُذْنِبُون، وغُفِرَ فيه سيئاتُ المسيئين، وضُوعِفَ فيه أجرُ العاملين، وأُحِبَّ فيه المواسون للفقراء والمساكين، وأُغْلِقَ فيه أبوابُ جهنم، وخُصِّصَ للصائمين فيه جزاءٌ لا يجزيه اللهُ غيرَهم؛ فقال: «إن الصيامَ لي وأنا أجزي به» (البخاري: ١٩٠٤؛ مسلم: ١١٥١).

ذكر اللهُ عزّ وجلّ الصيامَ في سورة البقرة عَبْرَ الآيات ١٨٣-١٨٦، وصَرَّحَ أنه تعالى قد كتبه على الأنبياء والأمم من لدن آدم – عليه و على نبينا الصلاة والسلام – إلى وقتنا هذا، لحكمة يعلمها. قال العلامة القاضي البيضاويّ (الإمام القاضي المفسر ناصر الدين أبوسعيد أو أبو الخير عبد الله بن أبي القاسم عمر بن محمد بن أبي الحسن البيضاوي الشيرازي الشافعي): وفيه توكيدٌ للحكم، وترغيبٌ في الفعل، وتطييبٌ على النفس. وقد أشار اللهُ تبارك وتعالى إلى الحكمة في الصيام بقوله «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ» المعاصيَ؛ لأن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها.

ومن يتقى المعاصيَ تسمو فيه روح الإخلاص، وتضعف فيه القوةُ البهيميّةُ، وتَقْوَى فيه القوةُ الملكيّةُ، ويتخلّى هو إذًا عن الرذائل، ويتحلّى بالفضائل التي تنحت منه إنسانًا منشودًا لدى الله، مَرْضِيًّا لديه، مُسْتَحِقًّا لثوابه ونِعَمِه.

ومثلُ هذا الإنسان المُتَّقِي المجتنب المعاصيَ، المتقرب إلى الله بالطاعة والعبادة، يعود إنسانًا مثاليًّا، إنسانًا صحيحًا سويًّا؛ فإذا عَمِلَ في مجال من مجالات الحياة، عمل بشكل يُرْضِي الله أولًا، ويَنْفَع خلقَ الله ثانيًا، ويُخَلِّد ذكرَه الحسنَ في صفحات الكون ثالثًا. فإن كان تاجرًا فهو تاجر أمين، لا يَغُشُّ ولا يخون، ولا يبيع على بيع أحد؛ وإذا كان فَلَّاحًا فهو فلّاح كادح مجتهد قَنُوع، متجرد من أمراض الشحّ والحرص والربا والتوسّع في أراضي الآخرين؛ وإذا كان حاكمًا فهو حاكم عادل مستحق للتمتع بظلّ الله تعالى يوم لا ظل إلّا ظلّه؛ وإذا كان محكومًا فهو محكوم مطيع، صابر متطوع، محتسب أجرَ الله وطالبٌ ثوابَه من وراء جميع أعماله وتحركاته؛ وإذا كان مُدَرِّسًا، فهو مدرس عطوف شفوق على تلاميذه، صَبُور على المطالعة والدراسة، حريصٌ على تزويد طلابه بكل ما عنده من علم ومعرفة؛ وإذا كان طالبًا فهو مصداق للذي تَضَع الملائكةُ له أجنحتَها رضًا بصنيعه، وحسن تعلّمه، وانقطاعه إلى طلب العلم، وزهده في كلّ ما لذّ وطاب، وإقباله على التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل؛ وإذا كان مُوَظَّفًا فهو موظف شاعر كلَّ الشعور بمسؤوليته، مُؤَدّ كلَّ عمل في وقته، غيرُ مُؤَجِّل لوظيفة الساعة لساعة أخرى، وغيرُ مُضِيع أوقاتَه في فضول الحديث، والتشاغل مع

الــزملاء، والتبــاطؤ في الأداء، والتــأخر في الوصــول إلى مكــان العمــل، والتعجّــل في مغادرته قبل انتهاء الدوام؛ وإذا كان قائدًا فهو قائـد جـدير بالاقتـداء، يبـدو خادمًـا لأمتـه وشـعبه، ودينـه و وطنـه، بكـل مـن سـيرته وسـلوكه وأعمالـه، ونـشاطاته في الحيـاة، فهـو قائـد مُطَـاع، قائـد مـسموعُ الكلمـة، قائـد مرهوبُ الجانب، قائد مخدوم، قائد تجد جميعَ الناس حوله كأنّهم رَهْنُ إشارته وطَوْعُ بنانه؛ وإذا كـان داعيًـا فهـو داعٍ بعملـه قبـل قولـه، وبـسيرته قبـل صـوته، وبـصمته قبـل ندائـه، وبسكونه قبل تحركه؛ لأنـه قد صَهَرَ حياتَه في بُوتَقَة الـدين الـذي يـدعو إليـه، وتَحَلَّىٰ بالـشيم والمكارم التي يودّ أن يتزيّن بها الإنسانُ حوله.

غيرَ أن هذه التقوى لا تتحقق بكل صوم، وإنما تتحقق بالـصوم الـذي أشـار إليه النبيّ – ﷺ– بقولـه «فـإذا كـان صـوم أحـدكم فـلا يرفـث ولا يـصخب؛ فـإن سابّه أحد أو قاتلـه فليقـل: «إنّـي صـائم إلى صـائم» (البخـاري: ١٨٩٤؛ ومـسلم: ١١٥١ واللفـظ للبخـاريّ) أي إنّ الــصوم لـــه آدابٌ دقيقـــةٌ وتقيّـــداتٌ والتزامات لطيفةٌ، يجب على الـصائم أن يتقيّد بهـا، حتـى لا ينبغـي لـه أن يُفْحِشَ في القـول، فضلًا عن الفحش في الفعل، ولا ينبغي له أن يصيح ويرفع صوته بالكلام، فضلًا عن تبادل السباب والشتائم والبذيء من الأقوال.

وكذلك أشار النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في كثير من الأحاديث إلى أنّه لابدّ للصائم – لكي يعطي صومُه النتائجَ المَرْجُوَّةَ ويَجْنِي هو منه الثمارَ الحلوةَ اليانعةَ – أن يُرَاعِي آدابَه؛ فليكن صــومُه نابعًــا قبــل كُــلِّ شيء مــن الإيــمان والاحتـساب والإخـلاص، والرغبـة في رضى الله تعالى؛ فقال:

«من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له مــا تقـــدم مـــن ذنبـــه» (البخـــاري:٣٨؛ ومسلم:٧٦٠؛ وأبـوداود:١٣٧٢؛ والنـسائي: ٢٢٠٣).

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال:

«مـن صـامَ رمـضانَ، وعَـرَفَ حـدودَه، وتَحَفَّظَ مما ينبغي لـه أن يَتَحَفَّظَ كَفَّرَ ما قبله» (ابـن حبـان في صـحيحه:٣٤٣٣؛ والبيهقـي في شعب الإيمان:٣٣٥١).

فمن الْتَزَمَ حدودَ الصيام، وتَقَيَّد بآدابه، وأدّاه على ما ينبغي أن يُوَدِّيه عليه، فإنّ النبي – ﷺ– أقسم بربّ العزّة والجلال أنّ خلوف

فـم هـذا الـصائم أَطْيَـبُ عنـد الله مـن ريـح المسك، فقال عليه الصلاة والسلام:

«والـذي نفسُ محمـدٍ بيـده لخُلُـوفُ فـمِ الـصائمِ أَطْيَـبُ عنـد الله مـن ريـح المـسك، وللصائم فرحتان يَفْرَحُهُمَا: إذا أفطر فَرِحَ بفطره، وإذا لَقِيَ رَبَّه فَرِحَ بصومه» (البخاري:١٩٠٤؛ ومسلم:١١٥١، واللفظ للبخاري).

وهناك زيادة في رواية البخاري وهي:

«يـترك طعامَـه وشرابَـه وشـهوتَه مـن أجلي، الصيامُ لي وأنا أجزي به، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أمثالِها».

وكلمـة «مـن أجـلي» جـديرةٌ بالمُلاحَظَـة والتوقّف؛ لأنها تُؤَكِّد ما نحن بصدد الحديث عنـه، وهـو أن الـصوم إنـما يُعْطِـي مفعولَـه المُتَوَخَّىٰ منه إذا رُوْعِيَتْ آدابُه، وكان لوجه الله تعالى، واتبغاء مرضاته، وإلّا فـإنّ صـاحبَه لا يجني من ورائه إلّا الجوعَ والعَطَشَ والحرمانَ من المَلَذَّات المُبَاحَة دونما فائدة.

فإذا رُوْعِيَتْ آدابُه، فإنّه يأتي أَثَرًّ نفعًا من العبادات والطاعات غيره، ففي روايةٍ لمسلم رحمه الله.

«وكـل عمـل ابـن آدام يُـضَاعَفُ الحَـسَنَةُ بعـشر أمثالهـا إلى سـبع مئـة ضِـعْف. قـال الله تعالى: إلّا الصومَ؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ شـهوتَه وطعامَـه مـن أجلي، للـصائم فرحتـان: فرحـةٌ عنـد فطـره، وفرحـةٌ عنـد لقـاء ربّـه، ولخُلُوفُ فمِ الصائمِ أَطْيَبُ عند الله من ريح المسك» (البخاري:١٨٩٤؛ ومسلم:١١٥١).

أي إن الصيام جزاؤُه سيُضَاعَفُ إلى ما لا يعلـم حدَّه وعدَّه إلّا اللهَ علّامُ الغُيُوبِ، وهـو مُـسْتَثْنًى مـن جميـع العبـادات التـي يُـضَاعَفُ ثوابُها إلى عَشَرَة أضعاف على الأقل، وإلى سبع مئة ضعف على الأكثر.

ومـا بالـك بالـصوم والله تعـالى هـو الـذي سيجزي الـصائمَ بنفسه، أو يكـون هـو جزاءً، للـصائم لقـاءَ صيامه؟! إنـه لـو لم تكـن للـصيام فضيلةٌ غيرها لكفاه ذلك فخرًا ولكفانا ابتهاجًا واستبـشارًا وتـسجيلًا؛ ولكـن لـه فـضائلَ جَمَّـةً غيرَهـا ذكرهـا الأحاديثُ. فهـي جُنّة مـن النار؛ وأن في الجنة بابًا يقال له «الريّان» لا يدخل منه إلّا الـصائمون؛ وأنـه ضَـمَانُ الـصحة، وكَـاسِرُ الشهوة، ومُذْكِي الفكرة، ومُوقِد البصيرة؛ وأنه الشافعُ لصاحبه يومَ القيامة، وأنه يُبْعِد الصائمَ عـن النـار بُعْـدَ الـسماء عـن الأرض، أو كبُعْـدِ غراب طار وهو فرخٌ حتى مات هَرِمًا، أو كبُعْدِ سبعين خريفًا أي سنة؛ وأنه زكاةُ الجسد؛ وأنّه نـصفُ الـصبر؛ وأنـه لا مثلَ لـه في التـسبب في

دخول العبد الجنةَ؛ وأن الصائم لا تُرَدُّ دعوتُه حتى يُفْطِر، كما لا تُرَدُّ دعوةُ الإمام العادل، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر حتى يرجعَ.

وهذا كلّه في مطلق الصوم.

وأما رمضان فله فضائلُه المستقلةُ ومزاياه الخاصّة، ففيه نَزَلَ القرآنُ الذي هو غنيٌّ عن التعْريف، والتفضيل؛ وفيه ليلةُ القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر؛ وفيه تُصَفَّدُ الشياطينُ، وفيه تُغْلَقُ أبوابُ النار؛ وتُفْتَحُ أبوابُ الجنة (البخاري:٣٢٧٧، ومسلم:١٠٧٩)؛ وفيه تُزَيَّن الجنةُ؛ وفيه يُعْتَقُ العصاةُ من النار؛ ومن تَقَرَّبَ فيه بخصلة من الخير، كان كمن أَدَّىٰ فريضةً فيما سواه؛ ومن أَدَّىٰ فريضةً فيه كان كمن أَدَّىٰ سبعين فريضةً فيما سواه؛ وهو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابه الجنةُ،وشهرُ المواساة، وشهرٌ يُزَادُ في رزق المؤمن فيه؛ من فَطَّرَ فيه صائمًا، كان مغفرةً لذنوبه وعتقَ رقبتِه من النار، وكان له مثل أجرِه من غير أن يُنْقَص من أجره شيءٌ، وهو شهر أوله رحمةٌ، وأَوْسَطَه مغفرةٌ، وآخره عتقٌ من النار (ابن خزيمة في صحيحه:١٨٨٧) وإن الله يُنْزِل فيه الرحمةَ؛ ويَحُطُّ الخطايا؛ ويستجيب فيه الدعاءَ؛ ويُبَاهِي بالمسلمين الملائكةَ. (الطبراني).

إلى غير ذلك من الفضائل التي لسنا بسبيل حصرها هٰهنا. على كلّ فإنّ الصيامَ مطلقًا، والصيام في رمضان خصوصًا، وشهر رمضان بذاته بصفة أخصّ، مما ينبغي أن نغتنمه نحن المسلمين كلَّ الاغتنام، ولا سيّما وإنّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد دعا على من أدرك رمضانَ وبَقِيَ محرومًا من المغفرة، لتقصيره وغفلته، وتماديه في الغيّ والمعصية.

اللّهم اجْعَلْنَا جميعًا من الّذين يستمعون للقول فيتبعون أحسنَه، واهدنا سبيلَ الرشاد؛ فإنّك وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

واجْعَلْنا من الصائمين المُرَاعِين لآداب الصيام وحقوقه، ومن الأَحْظِيَاء بنتائجه وثماره، ومنها التقوى التي هي صِمَام الأمان من كلّ سوء ومكروه، والتي تجعل من الإنسان مسلمًا مؤمنا، قانتًا محتسبًا، شاعرًا بمسؤوليته كلَّ حين، مُؤَدٍّ لوظيفته كلَّ وقت، قائمًا بأعماله للنصاب المطلوب، مُتْقِنًا لدوره المُوَكَّل إليه أيًّا كان نوعه. وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رَبِّ العالمين.

نور عالم خليل الأميني
nooralamamini@gmail.com

(تحريرًا في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم السبت: ٢٦/جمادى الأولى ١٤٤٠هـ الموافق ٢/فبراير ٢٠١٩م).

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائذ القاسمي المباركفوري

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

فائدة١:

فـإذا كـان الملـك والعـز والجـاه والتقلبـات والتصرفات كلها بيد الله تعالى، فلا يليق بالمؤمن إيمانًا حقًّا أن يغض الطرف عن أخوة إخوانه المؤمنين وخلتهم، ويلوذ بموالاة ومجاملةِ أعداء الله تعالى. ولن يكون أعداء الله تعالى موالين له. فمن سولت له نفسه ذلك فليعلم أنه ليس من حب الله تعالى و ولائه في شيء. وعلى المسلم أن يعلق آماله ومخاوفه كلها بربه سبحانه وتعالى. وحذارِ أن يستحق منه الاعتماد والثقة والحب والمناصرة إلا مَن كان على مثل هذه العلاقة مع الله تعالى.

نعم يُستثنى من النهي عن موالاة الكفار لزوم جانب الوقاية من الضرر العظيم من الكفار واتباع الوجوه المنطقية والمشروعة لذلك على سبيل التدابير وأسباب الصيانة. كما استثني في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ إلى قوله: ﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال:١٦]. فكما أنه لايُعَدّ الفرار حالة التحرف والتحيز فرارًا حقيقيًّا، وإنما هي صورة الفرار، كذلك لايعدُّ قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ موالاةً حقيقيةً، وإنما هي موالاة صورية، ونسميها «مداراة». ولمزيد من التفاصيل في هذا الصدد يرجع إلى الفوائد الواردة في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

فائدة ٢:

أي فليكن المؤمن خائفًا في قلبه حقيقةً من الله تعالى، فلا ينطق بما يجلب غضبه، ومنها: أن يتجاوز جماعةَ المسلمين و يوالي الكفارة موالاةً ظاهرةً أو باطنةً من غير داعٍ، أو يتجاوز حد الشرع فيما احتاج إليه من الموالاة الصوريَّة، أو يذهب إلى التاكيد على أن الأخطار الموهومة والأدنى أخطارٌ قاطعةٌ وفادحةٌ. ويتخذ من أمثال هذه المستثنيات ذريعةً إلى اتباع هواه، وليعلم أنهم جميعًا يَمْثُلُوْن بين يدي الله تعالى، ولاتغنيهم يومئذٍ الحيل الكاذبة، ومن شأن المؤمن القوي أن يأخذ بالعزيمة دون الرخصة، ويخاف الخالق أكثر مما يخاف المخلوق.

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فائدة ١:

أي قد يتستر المرء على نيته وما في قلبه عن الناس، ولكن هيهات أن يخدع به الله تعالى؛ فإنه: ﴿وَ اللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢].

فائدة ٢:

فإذا كان علم الله تعالى بهذه المثابة من الإحاطة، وقدرته بهذه الدرجة من التمام والكمال، فأنى للجاني أن يخفي على جريمته أو يلوذ بالفرار من العقاب؟

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

فائدة ١:

أي يمثل الخير والشر كله للإنسان يوم القيامة، ويؤتى صحيفة ما كسبه طوال حياته، فيتمنى المجرمون حينئذٍ قائلين: ليت هذا اليوم يبعد عنا، أو كان بيننا وبين هذه الأعمال السيئة مسافة طويلة فلايقتربونها.

فائدة ٢:

من فضله سبحانه تعالى أيضًا أنه حذَّركم ذلك اليومَ المخوف قبل أن يأتيكم، لتتخذوا التدابير اللازمة الواقية من غضب الله تعالى، باجتناب سبب المعصية وخاصة ترك موالاة الكفار، وبسلوك طريق الخير. ومما يختص به أسلوب القرآن الكريم أنه يقرن الرجاء بالخوف، والخوفَ بالرجاء في عموم الأحوال، فجاء ﴿وَ اللهُ رَوْفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ليضفي على الترهيب ثوبَ الاعتدال والوسطية، أي إذا اجتنبتم المعصية خوفًا من الله تعالى فهو من فضله سبحانه وهنيئًا لكم، ولاتدعوا اليأس يتخذ إلى قلوبكم سبيلًا. فتعالوا نرشدكم إلى تستحقون به من الله تعالى المغفرة والرحمة الكاملة؛ بل تكونون أحباء لله تعالى إذا دخلتموه. قال تعالى: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَ اللهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [آل عمران:٣١]

فائدة:

أعقب النهي عن موالاة الكفار وحبهم بذكر ما يعرف به حب الله تعالى،أي من زعم أنه بحب ربه سبحانه ويظنه فعليه أن يضع ذلك على محك اتباع محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فإنه يميز الصحيح من المزور. فبالقدر الذي يتبع حبيب الله تعالى ونبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويستضيء بنوره الذي جاء به، كان صادقًا في حب الله تعالى ومحقًّا فيه بقدره. وبالقدر الذي كان صادقًا في دعواه هذه، كان أكثر استعدادًا لاتباع رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وثباتا عليه. ومن ثماره أن الله تعالى يحبه. وببركة حب الله تعالى واتباع نبيه محمد -ﷺ- يُغفرله ما تقدم من ذنبه، ويتلوه أنواع من الأفضال الظاهرة والباطنة عليه. فكأنه لما فرغ من بيان التوحيد، بدأ بذكر النبوة. وفيه دعوة إلى طاعة خاتم الأنبياء محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

فائدة:

قال اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [مائدة:١٨]. فنبَّه هنا على أن الكافر لن يحبه الله تعالى، فإذا كان يحرص على أن يحبه الله تعالى فليأخذ بتوجيهاته. وأطيعوا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، واقتفوا بآثار أحب عباد الله إليه:

محمـد -ﷺ-. وقـال وفـد نجـران أيـضًا: نعظـم المسيح تعظيمًا لله تعالى وعبادةً له، فرد عليه. ثم ذكر عـدد مـن عبـاد الله المحبـين والمحبـوبين، وسُرِدت ترجمـة المـسيح -عليـه الـسلام- بمزيـد مـن الـشرح والبسط مراعاةً لوفد نجران. وهو تمهيد لذكر محمد -ﷺ- خاتم الأنبياء. كما ستعرف لاحقًا.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

فائدة:

وعمران اسم شخصين، الأول: والد موسى -عليه السلام-، والثاني: والد مريم -عليها السلام-. والمـراد هنـا هـو عمـران الثـاني عنـد أكثـر الـسلف والخلـف، إذ سـيأتي لاحقًـا ذكرقـصة بيـت عمـران الثـاني بقولـه: ﴿إِذْ قَالَـتِ امْـرَأَتُ عِمْـرَانَ﴾ الآيـة. ولعـل تـسمية الـسورة بـ«آل عمـران» يرجـع إلى أنـه ذكـرت قـصة آل عمـران الثـاني (أي مـريم والمـسيح عليهما السلام) بالبسط والتفصيل.

ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

فائدة١:

خلقُ الله تعالى يعم الأرض والسماوات والقمر والـشمس والكواكـب والملائكـة والجـن و الـشجر والحجر؛ ولكن الله تعالى خص آدم -عليه السلام- أبا البشر بأن أورثه مجموعةً من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية مالم يورثه أحدًا من خلقه؛ بل جعل آدم -عليه السلام- يسجد له الملائكة، وفضَّله على سائر خلقه عنده. وهذا الفضل والشرف الذي اصـطفى آدم واختـاره لأجلـه نعـبر عنـه بـالنبوة، لم يقتـصر عليـه شخـصيًّا؛ بـل انتقـل إلى نـوح -عليـه الـسلام- مـن ذريتـه، ثـم انتقـل إلى إبـراهيم -عليـه الـسلام- مـن ذريـة نـوح -عليـه الـسلام-، فتـصور صورة جديدة. فكل من جاء بعد آدم ونوح من البشر عـلى الأرض كـان مـن ذريـتهما ولاتخـرج عائلـة مـن العوائل من ذريتهما. وعلى العكس من ذلك كانت عوائـل كثيرة على وجه الأرض بعد إبراهيم -عليه السلام-؛ ولكن الله تعالى الذي اختار من بين خلقه الكثيرين آدم -عليه السلام- لمنصب النبوة هذا، هو الـذي اخـتص- بعلمـه المحـيط واختيـاره الكامـل- عائلة إبراهيم -عليه السلام- من بين آلاف العوائل اللاحقة لهذا المنصب الجليل.

فمـن جـاء مـن الأنبيـاء والرسـل بعـد إبـراهيم -عليـه الـسلام- كـانوا مـن ذريـة ولديـه: إسـحاق و إسماعيل عليهما السلام. وبما أن الانتماء نسبًا يرجع إلى الأب في عموم الأحوال، وكان المسيح عليه السلام من غير أب، فقد يوهم ذلك أنه يوجب استثناءه من ذرية إبراهيم، فنبه الله تعالى بقوله: ﴿آلُ عِمْرَانَ﴾، وبقوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ على أن المسيح - حيث ولـد مـن أمـه فقـط - كـان انتماؤه نـسبًا إليهـا - الأم-، لا إلى الله تعـالى - والعيـاذ بـالله منـه-. وغـير خـافٍ أن نـسب والـد مـريم -عليهـا الـسلام- وهـو عمران - ينتهي إلى إبراهيم عليه السلام، فكان «آل عمران» فرع من فروع «آل إبراهيم»، فلم يخرج أحد من عائلة إبراهيم -عليه السلام-.

فائدة ٢:

يـسمع الـدعوات وكـل مـسموع، ويعلـم الأحـوال والقـدرات الظاهرة والباطنة في كل شيء. فلايتوهم أنه اختار اختيارًا عشوائيًّا وكيف ما اتفق، فصنعه كله يقوم على علم وحكمة.

* * *

أجيبوا داعِيَ اللّه

بقلم: الأستاذ/ عثمان جمعة ضميرية

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يأَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ وأَنَّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤]. ما أعظم المِنة التي امتنها الله تعالى على عباده، عندما أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام دينًا: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] .

* وما أكرم هذا الإنسان، عندما يفيء إلى الله تعالى، ويستجيب لدعوته، ويبصر أمامه الطريق المستقيم؛ ليقوم بدوره في هذه الحياة، ويدرك معنى وجوده فيها! وعندئذ تتحقق له الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة الطيبة.

فالذين يستجيبون لله وللرسول ظاهرًا باطنًا هم الأحياء وإن ماتوا، وهم الأغنياء وإن قلَّت ذات أيديهم، وهم الأعزة وإن قلَّ الأهل والعشيرة.. غيرهم هم الأموات حقيقةً وإن كانوا أحياء الأبدان، يَسْعَوْنَ بين الناس جيئةً وذُهوبًا، ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ومَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢١] ، وهم الفقراء، ولو كان الذهب النُّضار يملأ خزائنهم، ويَعْمُر جيوبهم، وهم الذين تغشاهم الذلة، ولو كانوا يمتون بالنسب، ويحتمون إلى أعرق القبائل.

* ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى، ودعوة رسوله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، الذي يعاشرها ويبلّغها عن ربه تبارك وتعالى، فإن كل ما دعا إليه فيه الحياة، ومن فاته جزء من الدعوة فاته جزء، من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب لله وللرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-(١).

والله سبحانه وتعالى يوجِّه الدعوة الكريمة للمؤمنين، ويستجيش فيهم عاطفة الإيمان، ويخاطبهم بهذه الصفة: صفة الإيمان، ويذكّرهم بمقتضى هذا الذي آمنوا به، فيناديهم بصفتهم مؤمنين ليكون ذلك حاملًا لهم على المبادرة إلى إجابة الدعوة بعناية واستعداد، وقوة وعزيمة. وهذا هو شأن المؤمن: إنه يتلقى أوامر الله ودعوته بقوة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ﴾ [مريم:١٢] ، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، [الأعراف:١٧١] فإن لهذه الدعوة أعباءها، وإن لهذه المهمة تكاليفها: ﴿إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

ولـن يحمل هـذه الدعوة ويصمد لها، ويتغلب على عقبات طريقها، ويصبر أجمل الصبر عليها، ولن يعـيش لهـا ويتحـرك في دائرتهـا حركـة المـؤمن بهـا الـواعي لتكاليفهـا، إلا الرجـال الأقويـاء الأشـداء، وعندئـذ تكـون الأمـة التـي تنجـب هـؤلاء المـؤمنين الأفـذاذ، والتـي تأخـذ هـذا الكتـاب بقـوة، وتلتـزم بالتكـاليف.. أمـةً ذات رسـالة سـامية وهـدف عـالٍ، تكـافح وتجاهـد مـن أجلهـا: ﴿وَجَـٰهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨]، وتكون هي الأمة القائدة الرائدة، التي أناط الله تعالى بها مهمة الشهادة علـى النـاس جميعًـا، فتقـيم بيـنهم العـدل والقسـط، وتضع لهم الموازين الربانية والقيم الثابتة.. هي الأمة العدل الوسط، كما وصفها الله سبحانه وتعالى الذي حدد لها هذه الوظيفة فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

* وهذه الدعوة، التي يوجهها الله تعالى لعباده المؤمنين، دعـوة إلى الحياة بكـل صـور الحياة، وبكـل معاني الحياة؛ ولكنها ليست أيَّ حياة، وإنما هي ... الحياة الكريمة العزيزة، الحياة الحقيقية الكاملة، التي يتميز بهـا الإنسان عـن سـائر المخلوقات؛ فـإن هـذه المخلوقات تحيا حياة بهيمية، يتحرك فيها المخلوق بدافع من بطنه أو فرجه، فهو لا يعرف له غاية نبيلة يسعى إليها، ولا رسالة يحيا من أجلها، ويكافح في سبيلها، فحسبُه دريهمات يملأ بها جيبه، أو لقيمات تملأ معدته الفارغة، وثياب تكسو جسده العاري، وليكن بعد ذلك ما يكون، فهو لا يسعى لأكثر من هذا!!.

إنها حياة القلب والعقل، بالعقيدة التي تعمر القلب، فتملأ كيان الإنسان نورًا وهداية: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ... [الأنعام:١٢٢]. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وهـي العقيـدة التـي تهـدي العقـل، وتـضبط حركته وعمله، فتحميه من التيه والضياع، وتحفظ عليه جهده وطاقته من التبدد، عندما ترسم له منهج الفكر السليم، وتحدد المجال الذي يمكن أن يرتاده العقل ويستطيع أن يعمل فيه، ثم تحجب عنه ما لا يستطيع أن يفكر فيه أو أن يدركه، وعندئذ تتجمع الطاقة العقلية لتعمل في مجالها المحدد فتستطيع أن تحقق الكثير من الإنجازات العظيمة في نطاق السنن الربانية في الكون والحياة الاجتماعية والحضارية وفي أحداث التاريخ وأيام الله[٢].

وإنها حياة للروح والجسد، دون انفصام بينهما

ولا صراع، فما كان تعذيب الجسد -في شريعة الله- سبيلًا لرقي الروح وتزكيتها، ما كانت العناية بالروح عاملًا يدفع المؤمن إلى ترك ما أحل الله للإنسان وتحريمه، ولا حرمانه من حق الحياة الطيبة والزينة التي أخرجها الله لعباده: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢] ﴿وابْتَغِ فِيمَا آتَٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وهذا ما علمه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أصحابه وقذفه في قلوبهم وعقولهم، فكان درسًا وتعليمًا لا ينسى، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- يسألون عن عبادة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سُنتى فليس مني»[٣]. ولن تتحقق هذه الحياة إلا بوحي الله سبحانه وتعالى: ﴿وكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَٰبُ ولا الإيمَٰنُ ولَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فقد سمى الله تعالى ما أنزل على رسوله روحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه، كما سمّاه أيضًا نورًا؛ لتوقف الهداية عليه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [المؤمن:١٥]، كما سمّاه أيضًا شفاءً، فقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وليس غريبًا بعد هذا، أن يجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الإيمان والعقيدة التي جاء بها كالمطر الذي ينزل على الأرض الهامدة فيحييها، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، عن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجَادِبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعَانٌ لا تُمسك ماء، ولا تُنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعلَّمَ. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به»[٤].

فهي إذن دعوة إلى العقيدة والإسلام والإيمان،

فقد أحياهم الله تعالى بالإسلام والإيمان بعد موتهم بالكفر. وهي دعوة إلى الحق والقوة، الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، إذ لم يخلقهما الله تعالى إلا بالحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم:٨٥]، والكتاب الذي أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسله -ﷺ- هو الحق: ﴿والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتٰبِ هُوَ الحَقُّ﴾ ... [فاطر:٣١]، وقد أنزله الله تعالى بالحق: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران:٣].

والشريعة التي أنزلها الله تعالى على رسوله هي حق وعدل، أكملها الله تعالى وبثها في كافة الخلق: ﴿هُوَ الَذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف:٩]، وما أرسل الله تعالى رسله ولا أنزل كتبه إلا ليقوم الناس بالحق والقسط بين الناس: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنٰتِ وأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتٰبَ والْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

* وإذا كان الحق لابد له من قوة تحميه وتزيح العقبات من طريق حمله للناس وإبلاغه لهم، على حد قول الفاروق عمر -رضي الله عنه-: إنه لا ينفع التكلم بحق لا نفاذ له.. فإن هذه الدعوة إلى الحياة، هي دعوة إلى القوة والجهاد الذي أعزَّ الله تعالى به هذه الأمة بعد ذُل، وقوّاها من بعد ضعف، فقد حُملت راية الجهاد في سبيل الله؛ لتقرير ألوهية الله تعالى في الأرض، لينعم البشر بدين الله سبحانه وتعالى فيتحرروا في كل عبودية لغير الله، إذ هم عبيد لله تعالى وحده، وعندئذ تكتب لهم الحرية الحقيقية، والعزة الكاملة، فالجهاد هو طريق العزة والكرامة للأمة، هو طريق الحياة الحقيقية. وحتى عندما يموت المجاهدون ويستشهدون في سبيل هذه الدعوة، لن يكونوا عند الله تعالى إلا في عداد الأحياء، ولو كانوا في قبورهم، ولهم من الرزق الطيب عند الله ما لا يقاس به رزق الدنيا كلها، فهم الذين استجابوا لله والرسول: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوٰتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وفَضْلٍ وأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ﴾ ... [آل عمران:١٦٩-١٧٢].

ولقد كان المسلمون يعيشون هذه الحقيقة بحسِّهم وشعورهم المرهف، فالجهاد عندهم هو الحياة الحقيقية، والأمثلة على ذلك من الواقع التاريخي للمسلمين تعزُّ على الحصر، فهذا هو الفاروق عمر -رضي الله عنه- يرى غزو الروم بالشام ودعوة الصدِّيق -رضي الله عنه- إلى الجهاد دعوة للحياة الحقيقية الكريمة، فقد جمع أبو بكر، رضي الله عنه مستشاريه فاجتمعوا لديه، وكان مما قاله لهم: وقد أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام، ليؤيَّد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، مع أن

للمسلمين في ذلك الحظَّ الوافر، فمن هلك هلك شهيدًا، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين مستوجبًا على الله عز جل ثواب المجاهدين.. تكلم كل منهم: عمر وعبد الرحمن بن عوف.. وعثمان بن عفان وطلحة الزبير وسعد وأبوعبيدة وسعيد ابن زيد والحاضرون.. واتفقوا مع أبي بكر رضي الله عنه على مبدإ فتح الشام. انفض الاجتماع، وقام أبو بكر رضي الله عنه إلى الناس، فحمد الله بما هو أهله، ثم حثَّهم على الجهاد.. وسكت الناس، فما أجابه أحدٌ هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم. فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا معشر المسلمين مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم؟ .. أما إنه لو كان عَرَضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لابتدرتموه![٦]. وهكذا كانت كلمة ابن الخطاب تخرج من مشكاة قوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

* ثم هي الحياة الحقيقية في الجنة فالجنة هي دارالحيوان، هي الدار التي تفيض بالحياة الحقيقية و الحيوية، وفيها يتحدد مصير الإنسان الأبدي، بعد أن ينتقل من هذه الحياة الدنيا، فالدار الآخرة هي المتاع الذي ينبغي أن يحرص عليه المرء ولا يرضى به بديلًا، ولا يبغي عنه حولًا، ولذلك ينبغي الاستعداد والتأهُّب لتلك النهاية التي يصير إليها المرء، وعندئذ تنفتح أمامه آفاق سامية، وآماد بعيدة، ويرتفع إلى مستوى لائق بكرامته وإيمانه: ﴿ومَا هَذِهِ الحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]. وأما الذين يرفضون الاستجابة لله والرسول فإنهم يرفضون الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان، فليس لهم إلا الدُّون ومصيرهم الهلاك، ومآلهم الدمار والبوار: ﴿أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ القَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩] .

وما أعظم خسارة أولئك الذين آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية الدائمة! وما أعظم ضلال أولئك الذين حصروا الوجود في هذا الذي تقع عليه حواسُّهم قريبًا في الدنيا، ويحسبون أن وجودهم محصور فيها فلا يعملون لغيرها:

خُلِق النّاسُ للبقاءِ فضلّت
أمّةٌ يحسبونهم للنَّفاد
إنما يُنقلون من دار أعما
ل إلى دار شقوة أو رشاد!

* وكل ما ألمحنا إليه من معاني الحياة في هذه الآية الكريمة من الإيمان أو الحق أو الجهاد أو الجنة في الدار الآخرة.. كل هذه المعاني مرادة ومقصودة، ولا اختلاف بينها، وكلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي: القيام بما جاء به الرسول-ﷺ-، ظاهرًا وباطنًا، وما يظهر فيها من اختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضادّ[٧].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «والآية

تتناول هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة. وكمال الحياة في الجنة والرسول داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داعٍ إلى الحياة في الدنيا والآخرة»(٨).

وبعد، يا أخي المسلم: فهل تستجيب لهذه الدعوة الكريمة التي وجَّهها إليك رب العزة، جل جلاله؛ لتظفر بهذه الحياة الكريمة التي ألمحنا إلى شيء مما تعنيه، فتكون بسلوكك واستجابتك هذه مَعْلَمًا من معالم الطريق..؟ وإذا وُجِّهت إليك الدعوة ثانية، فهل تستجيب لها؟. إنك لست بالخيار.. إن أردت أن تكون مؤمنًا.. فإما إيمان.. أو لا إيمان.. إما استجابة.. وإما إعراض.. ولن يكون مؤمنًا ذاك الذي يُعرض عن دعوة الله، ولا يستجيب لها، أو يجعلها دبر أذنيه؛ فإن الاستجابة لله وللرسول، -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هي المحكُّ الحقيقي والمظهر العملي للإيمان: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤]. والمؤمن يستجيب لنداء الإيمان من فوره: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٢-١٩٣]. ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول:

يا أيها الذين آمنوا! فأرْعِها سمعك، فإنه إما خيرٌ تؤمر به، وإما شرٌ تنهى عنه».

* * *

الهوامش:

(١) انظر: الفوائد لابن القيم الجوزية: ١١٥-١١٦، طبع دارالنفائس، بيروت.

(٢) انظر بالتفصيل: خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب: ٥٤-٦٨، ٢٢٨-٢٣١، مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب: ٥٣١ وما بعدها، التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان ١٠٢-١٠٧، دار الأرقم بالكويت.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري في كتاب النكاح، انظر اللؤلؤ والمرجان: ٣٢٤/١ - ٣٢٥، طبع المكتبة الإسلامية بتركيا.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العلم، واللفظ له، ومسلم في كتاب الفضائل، انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي: ٢٢٣/٢، شرح السنة للبغوي: ٢٨٧/١-٢٨٨.

(٥) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان جمعة ضميرية ص ١١٥ وما بعدها، دار الأرقم بالكويت (هامش غير مشار إليه).

(٦) الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال ص ١٦٢-١٦٦، وقد أشار إلى فتوح الشام للأردي وتاريخ دمشق لابن عساكر.

(٧) جاء عن السدي أن الحياة هي الإيمان، وعن مجاهد: الحق، وقال قتادة: القرآن، وعن عروة ابن الزبير وابن إسحاق، وعن الجرجاني: الدار الآخرة، انظر: تفسير الطبري: ٢١٣/٩-٢١٤ طبعة الحلبي، ابن كثير: ٢٩٨/٢ مكتبة الرياض، الفوائد لابن القيم: ١١٥-١١٦، تفسير البغوي: ١٨/٣ بهامش الخازن، وعن تفسير التنوع والتضاد، انظر: مجموع الفتاوي ابن تيمية: ٣٣٣/١٣-٣٣٧، مقدمة في أصول التفسير: ٣٨-٤٢.

(٨) الفوائد لابن القيم: ص ١١٦.

* * *

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٧٠)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

نظام التعليم في دارالعلوم:

قبل الخوض في شرح المنهج الدراسي في دارالعلوم يجدر بنا أن نعرج على تاريخ موجز لمنهج العلوم العربية الدراسية، كي تتسنى معرفة الاتجاهات العلمية بدايةً من القرن الأول ليومنا هنا.

كان مبدأ التعليم في العهد النبوي هو القرآن الكريم، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليُعنى – بجانب تعليم القرآن الكريم- بنشر الأحاديث النبوية وتدريسها وتعليمها بصفةٍ خاصةٍ، ثم شهدت العلوم والفنون تطورًا وازدهارًا مع مرور الأيام وارتفاع الحاجات العلمية. واقتصرت العلوم والفنون إلى منتصف القرن الثاني على القرآن والحديث والفقه وأشعار العرب. ثم شهدت نهاية القرن الرابع الذي يعتبر عهد الاختراع والتدوين- ابتكار وترجمة العلوم والفنون المختلفة بجانب ازدهار المدنية وبدؤوا يدرسون بعض الفنون وفق الحاجات والمتطلبات التي أَمْلَتْها عليهم الظروف والأوضاع. فانضمت علوم الحديث والتفسير والفقه وأصوله، والصرف والنحو والقواميس وأشعار العرب والتاريخ إلى العلوم الدراسية في ذلك العصر. كما أضيفت إليه علوم الطب والنجوم والهيئة وبعض العلوم اليونانية أيضًا.

وجاء الإمام الغزالي (٠٠٠ - ٥٢٠ هـ = ٠٠٠ - ١١٢٦ م) ليؤسس علم الكلام فيما بين القرنين الخامس والسابع، ثم أصبحت علوم المنطق والفلسفة من العلوم العقلية جزءًا لايتجزأ من مقررات المدارس الإسلامية تأييدًا ونصرةً لعلم الكلام هذا.

وهذه العلوم – رغم انتشارها في كافة البلاد الإسلامية في قليل أو كثير- ولكن لابد من أن تتفاعل الدول المختلفة مع الخصائص الإقليمية والمحلية والقومية. فكانت مصر والشام يقطنهما العرب بكثرة كاثرة، فَسَادَ الاعتناءُ فيها – اعتناءً

(*) أستاذ التفسير واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

نسبيًّا- بالتفسير والحديث وأسماء الرجال، من جراء تغلب الاتجاهات العربية عليها، كما انتشر الشعر والأدب والتاريخ في الأندلس أكثر من غيرها من الدول، وتغلب مذاق المنطق والفلسفة على «إيران»، وساد الفقهُ وأصوله والتصوف بلادَ خراسان و ما وراء النهر، ومتزامنًا مع ذلك كان البلد الواحد يشهد تعديلات وتغييرات في المنهج الدارسي وفق متطلبات الجو والأوضاع المحيطة به في مختلف الأزمان والعصور.

ورغم أن المسلمين دخلوا بلاد الهند في القرن الأول، وارتفع تواجدهم لحد لابأس به في أوائل القرن الخامس أي على عهد السلطان محمود الغزنوي[١]، ودخلت «بنجاب» بجانب السند في الحكم الإسلامي، إلا أن تأثيرهم الحقيقي ورسوخ أقدامهم فيها بدأ في أوائل القرن السابع الهجري أي على عهد السلطان شهاب الدين الغوري (٥٩٧-٦٠٢هـ/١١٩١-١٢٠٥م)[٢]. وكانوا يولون في هذا العهد علمَ الفقه وأصولَه أهميةً أكبر من غيرهما من العلوم والفنون، وإن كانت علوم النحو والصرف والبلاغة والأدب والفقه والمنطق والكلام والتصوف تُعدُّ آيةً على الفضل والكمال، وكان المسلمون الذين انحدروا إلى الهند معظمهم ينتمي إلى هذه البلاد، فكان من الطبيعي أن تنجرّ إلى الهند ميولهم واتجاهاتهم معهم، فكانت هذه العلوم كلها جزءًا لايتجزأ من المنهج الدراسي المتبع في الهند في هذه الأيام.

ويقسم الشيخ الحكيم الشريف عبد الحي المنهج الدراسي الهندي القديم على أربع طبقات هي:

الطبقة الأولى:

نبدأها من أوائل القرن السابع إلى القرن العاشر فامتدت إلى مئتي سنة تقريبًا، وكان معيار الفضيلة في هذه الأزمنة من الفنون: والنحو، والبلاغة، ووأصول الفقه، والمنطق، والكلام، والتصوف، والتفسير.

أما في النحو: فالمصباح، والكافية، ولب اللباب، للقاضي ناصر الدين البيضاوي، والإرشاد للقاضي شهاب الدين الدولت آبادي.

وفي الفقه: الهداية. وفي أصول الفقه: المنار، وشروحه، وأصول البزدوي.

وفي التفسير: المدارك، والبيضاوي، والكشاف.

وفي التصوف: العوارف، وفصوص الحكم، وبعد فترة من الزمان: نقد الفصوص، واللمعات من الكتب السائدة في المدارس، وهما من كتب زوايا الصوفية.

وفي الحديث: مشارق الأنوار، ومصباح السنة، (أي متن مشكاة المصابيح).

وفي الأدب: المقامات الحريرية، كان هذا الكتاب يُستظهر، وتفيد أمالي الشيخ نظام الدين أنه قرأ «المقامات» على الشيخ شمس الدين الخوارزمي، واستظهر أربعين من المقامات.

وفي المنطق: شرح الشمسية.

وفي الكلام: شرح الصحائف، وفي بعض المدارس: «التمهيد» لأبي شكور السالمي أيضًا.

وتفيد دراسة تراجم علماء هذه الطبقة أن الفقه وأصوله كانا معيارًا للفضيلة، وكان قصارى نظرهم في الحديث «مشارق الأنوار»، ولمزيد من التمكن من الحديث كانوا يقرؤون كتاب «المصابيح».

ومن الخصائص التعليمية البادية في هذه الطبقة أنها كانت من إفرازات المذاق الفاعل والمؤثر للفاتحين، والذين بسطوا نظام الحكم في الهند قد انحدروا من «غزني» و «غور»، وهذه البلاد كانت تعتبر البراعة في الفقه وأصوله مفخرة وميزة لحاملها. وكانت الروايات الفقهية فيها على مكانة سامية للغاية.

الطبقة الثانية:

وحاول الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله رفع مستوى معيار الفضيلة هذا لحد ما، فأضافوا «المطالع» و«المواقف» من مؤلفات القاضي عضد الدين، و«مفتاح العلوم» للسكاكي إلى المقررا ت الدراسية، في نهاية القرن التاسع الهجري، قال البدايوني في تراجم هؤلاء المشايخ:

«قدم هذان العالمان إلى الهند أيام خراب ملتان، ونشرا علوم المعقول في هذه الديار، ولم تكن الهند شهدت انتشار كتب المنطق وعلم الكلام إلا شرح الشمسية و شرح الصحائف[٣].

وفي هذا العهد عمل تلامذة السيد الشريف على نشر «شرح المطالع»، و«شرح المواقف»، وتلامذة العلامة التفتازاني على نشر «المطول» و«مختصر المعاني»، و«التلويح» و«شرح العقائد النسفية».

كما أضيف كل من «شرح الوقاية» و«شرح الجامي» إلى المقررات الدراسية.

وفي نهاية هذه الطبقة حاول الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي نشر علم الحديث بعد ما تلقاه على علماء الحرمين الشريفين، كما سعى نجله الشيخ نور الحق -رحمه الله- سعيه لنشر دروس الحديث الشريف إلا أن سعيه باء بالفشل.

وفهرس كتب المقررات الدراسية في الطبقة الأولى، الذي قدمناه إليك إذا ما أضفنا إليه كتب هذه الطبقة من «المطالع» وشروحه، و«المطول» و«المختصر» و«التلويح» و«شرح العقائد النسفية» و«شرح الوقاية» و«شرح الجامي» هَانَ علينا وضع فهرس للمقررات الدراسية في الطبقة الثانية.

وتفيد دراسة تراجم هذه الطبقة أن كتاب «صدرا» و«شمس بازغة» كانا معدودين من المقررات النهائية في تلك الطبقة كما نشاهد ذلك في عصرنا هذا أيضًا، وقس عليه أن «مفتاح العلوم» للسكاكي، و«المطالع» و«المواقف» للقاضي عضد الدين كانوا يعدونهما من المقررات النهائية في تلك الطبقة، وطالما أشار إليه البدايوني في تراجم العلماء.

الطبقة الثالثة:

ما شهدت الطبقة الثانية من التعديلات في المنهج الدراسي، رفع معنويات الناس، فتاقوا إلى رفع مستوى معيار الفضيلة أكثر فأكثر، وجاء السيد فتح الله الشيرازي إلى الهند، وأضفى عليه الملك المغولي أكبر لقب «عضد الملك»، فأكرمه ورفع من شأنه، فأضاف إضافات جديدة إلى المنهج الدراسي السائد سابقًا، وسارع أهل العلم إلى قبولها والخضوع لها، يقول السيد غلام علي البلغرامي في «مآثر الكرام»:

«حمل مؤلفات العلماء المتأخرين في البلاد أمثال المحقق الدواني، ومير صدر الدين، ومير غياث الدين منصور، ومرزا جان مير إلى الهند، وضمها إلى المقررات الدراسية، واستفاد جمع عظيم من حاشية محفل المير، وشهدت المعقولات من يومئذ رواجًا لم يسبق له مثيل»(٤).

وذكر الشاه ولي الله الدهلوي -رحمه الله- وهو آخر علماء هذه الطبقة وأشهرهم وأبعدهم صيتًا- الكتب الدراسية التي قرأها في «الجزء اللطيف» على النحو التالي:

«في النحو: الكافية، وشرح الجامي.

في المنطق: شرح الشمسية، وشرح المطالع.

وفي الفلسفة: شرح هداية الحكمة.

وفي الكلام: شرح العقائد النسفية مع حاشية الخيالي، وشرح المواقف.

وفي الفقه: شرح الوقاية، والهداية كاملًا.

وفي أصول الفقه: الحسامي، وشيء من التوضيح والتلويح.

وفي البلاغة: المختصر والمطول.

وفي الهيئة والحساب: بعض الرسائل المختصرة.

وفي الطب: موجز القانون.

وفي الحديث: مشكاة المصابيح، وشمائل الترمذي، وشيء من صحيح البخاري.

وفي التفسير: المدارك، والبيضاوي.

وفي التصوف والسلوك: العوارف، والرسائل النقشبندية، وشرح رباعيات الجامي، ومقدمة شرح لمعات، ومقدمة نقد النصوص.

بعد ما أكمل الشاه ولي الله -رحمه الله- هذا المنهج الدراسي توجه إلى الحرمين الشريفين، وأقام

بها أربعة عشر عامًا، وحدث عن الشيخ أبي طاهر الكردي، ثم عاد إلى الهند، ونشط في نشره نشاطًا لاتزال آثاره قائمةً ليومنا هذا، وأدخل الشاه ولي الله الدهلوي وخلفاؤه كتب الصحاح الستة إلى المقررات الدراسية بمساعيهم الدؤوبة، فعادت جزءًا لايتجزأ منها.

هذا، وقد وضع الشاه ولي الله الدهلوي منهجًا دراسيًّا جديدًا آخر، إلا أن المرجعية العلمية كانت قد تحولت من دهلي إلى «لكناؤ» يومئذ، بالإضافة إلى أن الهند نشأت بينها وبين «إيران» علاقات جديدة على عهد كل من الملك همايون، والإمبراطور أكبر، مما خلق مع مرور الأيام تغيرًا جديدًا في المذاق العلمي الهندي، وأصبح المنطق والفلسفة – اللذَيْن كانا معيار الفضيلة والكمال في إيران من ذي قبل– يتغلبان على العلوم الأخرى مع الأيام على أيدي الأمراء والعلماء الإيرانيين القابعين في بلاط الملوك المغول. فلم يحظَ المنهج الدراسي الذي وضعه الشاه ولي الله الدهلوي بالقبول العام.

الطبقة الرابعة:

كان القرن الثاني عشر الهجري فاتحة للطبقة الرابعة، وذلك على عهد الملا نظام الدين السهالوي اللكنوي، عصريُّ الشاه ولي الله الدهلوي –رحمه الله–، أنشأ المنهج الدراسي المعروف بالمنهج النظامي السائد في المدارس العربية كلها، وهو أبو عذره، فقد أضاف الملا نظام الدين إلى المنهج الدراسي السائد في الطبقة الثانية بعض الإضافات والزيادات وجاء بنظام دراسي جديد،وهو ما يلي:

في الصرف: ميزان ومنشعب، وصرف مير، وبنج كنج، وزبده، وفصول أكبري، والشافية.

وفي النحو: نحو مير، وشرح مئة عامل، وهداية النحو، والكافية، وشرح الجامي.

و في المنطق: صغرى، وكبرى، وإيساغوجي، والتهذيب، وشرح التهذيب، والقطبي، ومير قطبي، وسلم العلوم.

وفي الفلسفة: ميبذي، وصدرا، وشمس بازغة.

وفي الرياضي والهيئة: خلاصة الحساب، وتحرير أقليدس (المقالة الأولى) وتشريح الأفلاك، والرسالة القوشجية، وشرح الجغميني (الباب الأول).

وفي البلاغة: مختصر المعاني، والمطول إلى قوله: ما أنا قلت:

وفي الفقه: شرح الوقاية (الجزآن الأولان) والهداية (الجزآن الأخيران).

وفي أصول الفقه: نور الأنوار، والتوضيح والتلويح، ومسلم الثبوت.

وفي الكلام: شرح العقائد النسفية، وشرح عقائد الجلالي، ومير زاهد، وشرح المواقف.

وفي التفسير: الجلالين، والبيضاوي سورة البقرة.

وفي الحديث: مشكاة المصابيح.

ومن خصائص هذا المنهج الدراسي أنه يركز على خلق قوة إمعان النظر والمطالعة أكثر فأكثر، ولذلك يحصل للطلبة بعد مدارستهم لذلك قوة المطالعة ودقة النظر والاستعداد للكمالات في أي فن من الفنون وإن كانوا لايكملون بالفعل. وأما معيار الحديث والتفسير فلا يرتقي كثيرًا في هذا المنهج الدارسي، وأما الأدب فلم يتضمن هذا المنهج شيئًا من كتبه.

كانت الهند تشهد في القرن الثالث عشر الهجري ثلاثة مراكز علمية: دهلي، ولكناؤ، وخيرآباد. ورغم أن هذه المراكز الثلاثة كانت تشارك في المنهج الدراسي لحد كبير، إلا بعضها يختلف عن بعض في الرؤية والفكرة، فكانت «دهلي» تركز على التفسير والحديث أكثر، وكانت عائلة الشاه ولي الله الدهلوي ناشطة بكليتها في نشر علوم الكتاب والسنة، وأما علماء «فرنكي محل» في لكناؤ فكان يغلب عليهم الصبغة القديمة التي سادت بلاد ماوراء النهر في القرن السابع، فكان الفقه وأصوله يحتلان أكبر أهمية عندهم، وكانوا يكتفون بالجلالين في تفسير القرآن الكريم، وبمشكاة المصابيح في الحديث، وأما مركز خيرآباد فكان يعالج المنطق والفلسفة فحسب، ولايتجاوزهما، وكانوا يركزون على تدريس هذين العلمين تدريسًا تضاءل معه تدريس العلوم الأخرى كلها بجنبهما.

* * *

الهوامش:

(١) السُّلْطان الغَزْنَوي (٣٦١ - ٤٢١ هـ = ٩٧١ - ١٠٣٠ م) محمد بن سبكتكين الغزنوي، فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور. وكانت عاصمته غزنة (بين خراسان والهند) وفيها ولادته ووفاته. مات أبوه سبكتكين سنة ٣٨٧ هـ، وخلف ثلاثة أولاد، هم: محمود وإسماعيل ونصر. وجعل دأبه غزو الهند مرة في كل عام، فافتتح بلادًا شاسعة، و استمر إلى أن أصيب بمرض عاناه مدة سنتين، لم يضطجع فيهما على فراش؛ بل كان يتكئ جالسًا، حتى مات وهو كذلك. وقبره في غزنة. كان حازمًا صائب الرأي، يجالس العلماء، ويناظرهم. وكان من أعيان الفقهاء، فصيحًا بليغًا، استعان بأهل العلم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة، نسبت إليه، منها كتاب (التفريد) في فقه الحنفية، نحو ستين ألف مسألة، وخطب ورسائل، وشعر. (راجع: الأعلام للزركلي ١٧١/٧).

(٢) السلطان شهاب محمد بن سام الغوري، مؤسس الدولة الغورية القائمة على أنقاض الدولة الغزنوية، التي كانت تملك الغور والأفغان والهند الشمالية. وفي عام ١٢٠٦هـ ذهب إلى لاهور للقضاء على تمرد الخخار الهندوس، وبعد إخماد التمرد بقتل عشرات الآلاف من الخخار، أقفل عائدًا إلى غزنة، وفي طريق عودته توقف للراحة، في دامق، بالقرب من مدينة جهيلوم في مقاطعة «بنجاب»، وأثناء الصلاة قتله هندوسي من الخخار انتقامًا. راجع: ar.m.wikipedia.org

(٣) منتخب تواريخ للبدايوني، ص ٨٦.

(٤) مآثر الكرام، ص ٢٣٨.

شهر رمضان وفضيلة قراءة القرآن

بقلم: د. **طارق بن محمد الخويطر**[*]

شهر رمضان ضيف عزيز وهو شهر عظيم، وردت فيه أحاديث كثيرة تدل على فضله وفضل الطاعات فيه، ومن هذه الطاعات قراءة القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر:٢٩-٣٠).

وتلاوة القرآن على نوعين: تلاوة حكمية وهي تصديق أخباره وتنفيذ أحكامه بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

والنوع الثاني: تلاوة لفظية، وهي قراءته. وقد جاءت النصوص الكثيرة في فضلها إما في جميع القرآن وإما في سورٍ أو آياتٍ معينة منه، ففي صحيح البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- قال: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران». والأجران أحدهما على التلاوة والثاني على مشقتها على القارئ.

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو»، وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- قال: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه». وفي صحيح مسلم أيضًا عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي -ﷺ- قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاثٍ، و أربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل».

وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي هريرة

(*) معهد القرآن الكريم بمدارس الحرس الوطني العسكرية.

رضي الله عنه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينه إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها»، متفق عليه. وقال -ﷺ-: «لا يقل أحدكم: نسيت آيات كيت وكيت؛ بل هو نُسِّيَ»، رواه مسلم. وذلك أن قوله: نسيت قد يشعر بعدم المبالاة بما حفظ من القرآن حتى نسيه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف؛ ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» رواه الترمذي.

وعنه رضي الله عنه أيضًا أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله المتين والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوجّ فيقوّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، اتلوه؛ فإن الله يأجركم على تلاوة كل حرفٍ عشر حسناتٍ. أما إني لا أقول: الم حرف؛ ولكن ألف حرف ولام حرفٌ وميم حرفٌ» رواه الحاكم.

فانظر أخي الكريم إلى فضل الله ورحمته بالأمة؛ فإن الحرف الواحد بعشر حسنات والحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فإذا علم المسلم هذا الفضل بادر إلى قراءة القرآن الكريم كل وقت، ولو كانت قراءته في بعض الأوقات قليلة إلا أن فضل الله واسع فيضاعف هذه الحسنات إلى أضعاف كثيرة.

و وردت السنة النبوية بفضل بعض السور فروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال له: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

ويدل أيضًا على فضل هذه السورة أن الصلاة لا تصح إلا بها كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثا».

ومن السور التي ورد فيها فضل: سورة البقرة وآل عمران قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، واقرؤوا سورة البقرة؛ فإن أخذها

بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» يعني السحرة.

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: إن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» أخرجه مسلم.

وفي هذه السورة آية الكرسي وقد ورد في الصحيح أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل قال – وهو عند النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: «أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته» رواه مسلم.

ومن السور التي ورد فيها فضل: سورة الإخلاص: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال فيها «والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن».

و ورد أيضًا في فضل المعوذتين (قل أعوذ برب الفلق)، و (قل أعوذ برب الناس). فروى مسلم عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُر مثلهن (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) وفي حديث آخر قال النبي – ﷺ– لعقبة «ما سأل سائل بمثلهما ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما».

والأحاديث كثيرة في هذا الباب، والسعيد من أدرك هذا الفضل، وحاول جاهدًا قراءة القرآن في هذا الشهر وفي كل وقت ليحظى بهذا الأجر العظيم حتى وإن لم يستطع إلا في أوقات قصيرة أن يقرأ القرآن فالقليل مع القليل كثير وفضل الله واسع، وبخاصة أن الله تعالى قد سهل قراءة القرآن وحفظه قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[القمر:٢٢].

وإذا حافظ المسلم على قراءته وتدبره كان ذلك بإذن الله حصنًا منيعًا من الشيطان والسحرة، وإذا أهمل قراءته كان مطمعًا للشياطين وطلبًا للسحرة وضعاف النفوس، ويكفي أن تكون حياته إن غفل عن ذكر الله وعن تلاوة القرآن أن تكون همًا وغمًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:١٢٤-١٢٥].

* * *

كُتب عليكم الصيام

بقلم: الأستاذ عبد الستار محمد خليف

يتميز شهر رمضان بما يجعله خير الشهور كلها، فقبل الإسلام نزلت فيه صحف سيدنا إبراهيم -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أول ليلة من الشهر، ونزل القرآن الكريم على سيدنا محمد -ﷺ- في ليلة القدر وهي إحدى ليالي شهر رمضان، ومن الثابت أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، وإذا كانت هذه الليلة خير من ألف شهر، لما يحدث فيها ولا يحدث في غيرها، حتى إنها الليلة الوحيدة في العام التي تسمى ليلة السلام، وذلك بنص آيات القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرٰىكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلٰئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلٰمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (سورة القدر:١-٥).

وفرض الله سبحانه وتعالى على المسلمين صيام شهر رمضان بنص الأمر الكريم في الآية الشريفة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءٰنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنٰتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة:١٨٥).

وليس صوم رمضان هو أول صوم تقرر للإنسان، فإن الصوم عبادة فرضها الله – سبحانه وتعالى – على عباده منذ أن خلق الإنسان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

فليس كل صوم هو إمساك عن الأكل والشرب؛ لأن لفظ الصوم إنما يعني الإمساك، وكما أن الصوم عن الأكل هو إمساك عنه. فيكون الإمساك عن الكلام هو صوم عن الكلام، وقد وردت في القرآن الكريم النصوص التي تشير إلى الصوم عن الكلام. فقد فرض الله سبحانه وتعالى على سيدنا زكريا الصوم عن الكلام ثلاثة أيام، وذلك بالنص الشريف: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا﴾ (آل عمران: ٤١).

كما أمر به مريم بنص الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم:٢٦).

وإذا كان الصوم عبادة يجب على الإنسان أن يؤديها فهي طاعة لله؛ فإن الدراسات الحديثة قد أثبتت أن الصوم إنما شرع لخير الإنسان في الدنيا، كما أنه السبيل إلى السعادة في الآخرة. ولهذا الشهر فضائل كثيرة للإنسان المسلم، مما يتيح له التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وصيامه وقيامه وعبادته بكل صفاء دون أن يشغله شاغل بعيدًا عن العمل غير

الصالح في حياته اليومية، حيث إن هذا الشهر الكريم، شهر العبادة والتقوى والرحمة والمغفرة.

وبداية الصوم اليومي ونهايته أمر واضح وميسور، فيبدأ الصوم بطلوع الفجر وينتهي بغروب الشمس، وتعلن كل الدول الإسلامية بمختلف وسائل الإعلان بداية ونهاية الصوم كل يوم.

وقد فرض الصيام على كل مسلم ومسلمة بشرط أن يكون قد وصل سن البلوغ وبشرط عدم المرض وسلامة العقل، وأن يكون المسلم مقيمًا غير مرتحل، وأن تكون المرأة طاهرة من حيضها أو من النفاس، ورحمة من الله بعباده وتيسيرًا لهم، قد أباح الإفطار للمسلم وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة:١٨٤).

وينسحب حكم المريض والمسافر على الحامل أوالمرضع، فيمكنها أن تصوم شهر رمضان إذا وجدت في نفسها القدرة على ذلك دون احتمال لوقوع الضرر عليها أو على جنينها أو وليدها، فإذا خافت على نفسها أو على مافي بطنها أو رضيعها فلها أن تفطر وعليها القضاء بعد انتهاء ظروفها ونهاية رمضان.

وتوجد فئة أخرى وهؤلاء هم الشيوخ الذين لا يحتمل حالاتهم الصوم، وكذلك المرضى بمرض مزمن، وهؤلاء أباح الله – سبحانه وتعالى – لهم الإفطار وليس عليهم القضاء لعدم الاستطاعة، ولكن عليهم الفدية وهي إطعام مسكين عن كل يوم من أيام الصيام وذلك بنص الآية الشريفة: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة:١٨٤). ويطيقونه أي: يتحملونه بعسر وجهد، وتكون المشقة في الصيام مساوية لطاقة الإنسان أو تزيد عليها، وفي الحالتين الضرر يكون مؤكدًا.

وقد يعتقد بعض الناس أن الصوم إنما هو إمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولكن الحقيقة أن الصوم عبادة فيها يحاول الإنسان أن يتجرد من آدميته البشرية ليقارب الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون، وأن يكون طوال صومه متخلقًا بأخلاق العبادة فهو بين يدي الله ومن أفضال الشهر الكريم، قيام لياليه المباركة اقتداء بنبينا محمد -ﷺ- وأن الصيام يطهر النفوس ويلطف المشاعر الآدمية ويسمو بالروح وينير البصائر ويزيل الغشاوة من على القلوب.

وبديهي أن سلوك الصائم الذي ملأ الإيمان قلبه، والذي يعتقد أنه إنما يصوم امتثالًا لله وتقربًا له، وأن أجره إنما على الله سبحانه وتعالى، هو سلوك من يبعد عن الذنب ابتعادًا تامًا؛ بل يترك كل ما فيه شبهة من حرام، أو ذرة من عقاب، يقول فيه رسول الله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»؛ بل نهى سيدنا رسول الله عن الفحش في الكلام أو رفع الصوت أو رد الشتم، وذلك بنص الحديث الشريف: «إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إني صائم». والصيام لا يكون عن الأكل والشرب، وإنما هو صيام يشمل صيام

الجوارح عن المعاصي، وصيام اللسان عن الفحش ومساوئ الأخلاق. فالواجب على الصائم استغلال كل وقته في رمضان في طاعة الله – عز وجل – وقراءة القرآن الكريم، والذكر والدعاء، حتى يحصد الأجر والثواب في هذا الشهر العظيم.

والصائم الذي يرجو الثواب ويطمع في رحمة الله عليه أن يتصرف طوال يومه تصرف العابد الذي يتعبد وهو بين يدي الله، ومن العباد من يرتفع بصومه إلى الدرجة التي لا يسبقه فيها غيره، فيصوم قلبه عن الانشغال بغير خالقه ولا يداخل فكره غير ذكر ربه. وليس معنى ذلك أن يعتكف الإنسان عن الحياة فلا يزاول عمله، فالعمل والإخلاص فيه وإتقانه إنما هو من حسن العبادة، فإن خير ما تحيا به ليالي رمضان، هو التدبر والتفكر في القرآن الكريم، الذي أوحاه الله – جل شأنه – لنبيه في شهر رمضان، وإذا كان هذا ما يجب أن يكون عليه الصائم طوال شهر رمضان، فإنه إذا أقبلت العشر الأواخر من شهر رمضان وجب على الصائم الاجتهاد في العبادة، والاستزادة من عمل الخير، والتماس ليلة القدر في إحدى هذه الليالي بالإكثار من الصدقة وزيادة الدعاء.

وعلى ذلك وجب على المسلم أن يجتهد في العبادة في شهر رمضان، وأن يكثر من تلاوة القرآن ويتفكر فيه ويتدبر آياته أسوة بما كان يفعله سيدنا رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وإذا كان الدعاء واجبًا على الإنسان في كل حين، فهو في رمضان أوجب، وإن خير الدعاء ما ورد في القرآن الكريم.

أما في ليلة القدر، فقد قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها –: «قلت يا رسول الله، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي اللّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»». وقد شرعت زكاة الفطر جبرًا لما قد يقع من الصائم من هفوات فهي كاستغفار عما وقع، ولابد أن يقع من الإنسان ما يستحق عليه الاستغفار والتوبة منه، وفي ذلك يقول سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر».

وما زال العلم يجتهد ليظهر للعالم مزيدا من أهداف الصوم، التي لا نهاية لها، أما جزاء الصوم في الآخرة فقد أشارت آيات القرآن الكريم إليه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٢).

والصائم إنما يصبر على الجوع والعطش ابتغاء وجه الله، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب:٧١).

* * *

المصادر

- القرآن الكريم.
- (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين): للإمام المحدث الحافظ محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، الناشر: دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (صوم رمضان) عبد الرزاق نوفل. سلسلة (أركان الإسلام)، دارالشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت، لبنان.

* * *

* *

العمرة في رمضان

بقلم: **د. أحمد بن عبد الله الباتلي**[*]

من نعمة الله تعالى علينا أن يسر لنا طرق الخيرات وشرع لنا مواسم الحسنات، ففي هذا الشهر الكريم شرع لكل صائم أن يكثر فيه الطاعات والتقرب إلى رب السماوات لنيل الحسنات ولبلوغ أعلى الدرجات في الجنات.

ومن الأعمال الصالحة التي شرعها لنا النبي – ﷺ – في هذا الشهر الكريم العمرة في رمضان...

ومن المعلوم أن العمرة مستحبة في كل وقت من العام لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحخج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وهذا الفضل العظيم للعمرة عامّ في كل حين.

أما في رمضان فإن فضلها يتضاعف، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – لما رجع من حجة الوداع، قال لامرأة من الأنصار اسمها أم سنان: «ما منعك أن تحجي معنا؟» قالت: أبو فلان (زوجها) له ناضحان، حج على أحدهما، والآخر نسقي عليه. فقال لها النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «فإذا جاء رمضان فاعتمري، فإن عمرة فيه تعدل حجة» أو قال: «حجة معي» متفق عليه.

ويا له من فوز أن تكون كمن حج مع رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فوقف معه بعرفة، وبات معه بمزدلفة، وأفاض بصحبته إلى منى، وطاف بجواره وسعى، كما هو مفهوم من ظاهر الحديث.

وينبغي التنبه إلى أن العمرة في رمضان تعدل حجة مع النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الأجر والثواب لا في الإجزاء، فلا تجزئ العمرة في رمضان عن حجة الاسلام، ولا يجوز لأحد أن يستغني بالعمرة عن الحج.

وإن مما يثلج الصدر أن نرى إقبال المسلمين على العمرة في هذا الشهر الكريم، وعليهم أن يحرصوا على الوجه الأكمل دون عجلة في الطواف أو السعي أو مزاحمة المصلين في بيت الله الحرام؛ بل يؤدوها بسكينة ووقار لقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحسَن عَمَلًا﴾ أي: أصوبه وأخلصه.

لكن هناك أخطاء يقع فيها بعض الناس عند أدائهم العمرة فأرى من واجب النصيحة لهم التنبيه إليها وهي:

أولًا: أن بعض الموظفين يطلبون إجازة

---

[*] أستاذ مشارك بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

اضطرارية، من أجل الذهاب إلى مكة لأداء العمرة في رمضان، وهذا لا يجوز: فإن الإجازة الاضطرارية في أنظمة الموظفين إنما تمنح للموظف في حالة الاضطرار كمرض أو وفاة قريب أو ما أشبه ذلك، أما العمرة فليست ضرورة، فيحرم أخذ الإجازة الاضطرارية لأجلها، لا سيما من يترتب على تركه لوظيفته تعطيل مصالح المسلمين، وتأخر إنجاز معاملاتهم.

ثانيًـا: إن بعض النساء يسافر للعمرة وليس معهن محارم، ومما عمت به البلوى في هذا الزمان، سفر بعض الأسر بخادمات عندهم إلى مكة بدون محرم وهذا لا يجوز، وقد عقد البخاري – رحمه الله – في صحيحه بابًا سماه باب (حج النساء).

وساق تحته عدة أحاديث، منها حديث ابن عباس – رضي الله عنه – قال: قال النبي -ﷺ-: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم».

فقال رجل: يا رسول الله، إني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، وامرأتي تريد الحج! فقال: «أخرج معها».

هكذا يأمر النبي -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- هذا الرجل بأن يترك الجيش الذي يريد أن يغزو معه، وأن ينطلق ليصحب امرأته التي خرجت حاجَّة، مما يدل على أهمية الأمر. ثم ساق البخاري – رحمه الله – حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – حيث قال: «أربعٌ سمعتهن من رسول الله -ﷺ- فأعجبني ألا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم، ولا صوم يومين: الفطر والأضحى، ولا صلاة بعد صلاتين: بعد العصر حتى تغرب الشمس، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي والمسجد الأقصى».

فدلت الأحاديث على ضرورة التزام المرأة بآداب السفر ولا يظن أن هناك تعارضًا بين حديث أبي سعيد الخدري «ألا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم» وبين حديث ابن عباس السابق جاء النهي مطلقًا بدون تقييد بأيام معينة، فكل ما سمي سفرًا يؤخذ فيه برخص السفر، فإنه لا يجوز للمرأة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم، إذًا فمن الخطأ أن يسافر الرجل بأجنبية عنه، سواء كانت ابنة عمه، أو خادمة في بيته، أو من جيرانه، أو غير ذلك، وعلى المسؤولين عن حملات العمرة التنبه لذلك، وعدم اصطحاب النساء إلا بمحارم، لما في ذلك من مصالح شرعية واجتماعية، فلو مرضت مثلًا، فمن يقوم بعلاجها؟!!. ولو فقدت من يبحث عنها؟!.

ثالثًـــا: إن بعض المعتمرين يهملون أهاليهم الذين استرعاهم الله إياهم، فقد يسافر الأب والأم إلى مكة للعمرة ويتركان أولادهما من أجل الدراسة في بلدهم فيقضي الوالدان نصف رمضان أو أكثر في مكة والأولاد طوال هذه المدة بدون رقيب، وقد يكونون من الصغار الذين لا يدركون، أو من المراهقين الذين يخشى أن ينزلقوا في مزالق كبيرة ذكورًا أو إناثًا بسبب استفزاز شياطين الجن والإنس لهم، وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول! (كلكم

راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته).

وقد يحدث الخطأ بصورة أخرى وهي أن كثيرًا من الناس يسافر بأهله إلى مكة ثم يعتكف الأب في الحرم أو يقضي غالب وقته فيه، ويغفل تمامًا مراقبة أبنائه وبناته، تاركًا لهم الحبل على الغارب، فينتج عن ذلك ما رأيناه ورآه غيرنا في أطهر بقعة من التبرج وتضييع الحشمة لدى بعض البنات، وخاصة أن منهن بنات لأسر محافظة – نسأل الله العافية – .

حقًا إن اصطحاب الأبناء إلى البلد الحرام أمر طيب فيه تربية وتمكين لهم من إدراك فضيلة الزمان والمكان، ومضاعفة الحسنات فإذا كان الأب رجلًا حازمًا يستطيع أن يحافظ على رعيته، فحبذا ذاك وأما إذا كان عاجزًا عن رعايتهم ومراقبتهم وضبط تصرفاتهم، فليبقَ في بيته طلبًا للسلامة من الفساد والضرر البالغ الذي قد يلحق برعيته، فيرجع بوزرهم بدلًا من الرجوع بالثواب المضاعف، وقد قال الفقهاء: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة».

رابعًـــا: إن كثيرًا من أئمة المساجد والمؤذنين ومن المصلحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر والوعاظ والموجهين يتركون ثغورهم ويؤمون مكة ليعتمروا ويقضوا العشر الأواخر هناك. ولا ريب أن من كان مرتبطا بإمامة أو وعظ أو وظيفة يحتاج إليها المسلمون، فإن الأوجب في حقه أن يبقى على ثغره، فإن في ذلك تحصيل المصالح المتعدية خيرًا كثيرًا، وإن أبى إلا الذهاب للعمرة فليكن ذلك في مدة وجيزة يومًا أو يومين، يعود بعدها إلى مكانه، فإن من غير المستحسن أن تخلو المساجد وغيرها من الوعاظ والمرشدين والأئمة المؤثرين، في هذه الأيام المباركة، وخاصة (العشر الأواخر) فلينتبه الحريصون على الخير لذلك، ولينظروا إلى الأمور بميزان العدل، لا سيما من كان مسؤولًا عن إفطار الصائمين فبسفره تتعطل تلك الشعيرة العظيمة ويفقد أولئك الفقراء تلك الوجبات التي كانت تُقدم لهم فحرم نفسه أجر تفطير الصائمين.

خامسًا: بعض الناس يكرر العمرة في رمضان، خصوصًا أهل مكة، وهذا خلاف عمل الرسول – ﷺ – والسلف الصالح؛ بل الأولى له أن يعتمر عمرة في رمضان، ويجعل بقية أوقاته في قراءة القرآن والذكر ونوافل العبادة الأخرى.

سادسًـــا: يبالغ بعض الناس في دفع إيجارات باهظة الثمن وهذا إسراف وتبذير بإنفاق الآف الريالات في ليالٍ معدودات، والأولى الاستئجار بسعر مناسب وصرف بقية المبالغ في وجوه الخير، فأبواب البر كثيرة لا سيما في هذا الشهر الكريم من الصدقات وتفطير الصائمين ومساعدة المحتاجين ابتغاء الأجر من رب العالمين.

ســـــابعًا: يضيع بعض المعتمرين أوقاتهم في التجول بين الأسواق وشراء الهدايا بأغلى الأثمان، وحبذا تخصيص وقت يسير لذلك، واغتنام أوقاته ببيت الله الحرام؛ فإنه لايدري، هل يأتي العام المقبل أم لا؟

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

غزوة بدر الكبرى

بقلم اللواء الركن (م): **شوقي محمد بدران**

أخـرج المـسلمون مـن ديـارهم وأمـوالهم في هجرتهم من مكـة إلى المدينـة. وقد عـبر عـن ذلـك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الَّذين أُخْرِجُوْا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ بِغَـيْرِ حَـقٍ إِلَّا أَن يَقُوْلُـوْا رَبَّنَـا اللهُ﴾. وقـال رسـول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عنـد خروجـه مـن مكة مهاجرا: «والله يا مكة، إني لأعلـم أنك أحب البلاد إلى الله، ولـولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت».

وبعـد مـضي عـام وبعـض العـام، وصـلت الأنبـاء بأن أبا سفيان، وكـان سيد مكة، عائد من الشام على رأس قافلة تتكون من حوالي ألف جمل محملـة بـالأموال والتجـارة. وكـان يتعمـد المـرور بـالقرب مـن المدينـة في طريقـه إلى مكـة لتحـدي المسلمين وإثارة مشاعرهم، واستهتارا بالمسلمين، وكانت القافلة في حراسة أربعين رجلا فقط.

لقـد أراد الكفـار أن يظهـروا أنهـم أخرجـوا محمــدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ورجالــه مــن مكــة واسـتولوا عـلى ديـارهم وأمـوالهم، ثـم يمـرون بـالقرب مـن المدينـة، ومعهـم، أمـوالهم في حراسـة عدد قليل من الرجال ليثبتوا أن أحدا من المسلمين لن يجرؤ على التعرض لهم.

لهذا دعا رسـول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رجاله إلى اعتراض طريق هذه القافلة - قائلا: «هذه هي عير قـريش، فيهـا أموالهم فـاخرجوا إليهـا لعـل الله أن يجعلها غنيمة لكم».

وخـرج الرسـول القائـد - صـلوات الله عليـه وسـلامه عليـه - ومعـه ثـلاث مئـة وأربعـة عـشر رجـلا. ولم تكـن معهـم خيـول أو ركائـب كافيـة، فكـانوا كـل ثلاثـة عـلى بعـير. ولم تكـن معهـم مـن معدات وأسلحة القتال سوى القليل. ولكـن كـان معهـم روح معنويـة عاليـة، واستعداد للتـضحية في سبيل الله. واستطاعت قافلة أبي سفيان أن تفلت، وغـيرت طريقهـا بعـد أن أرسـلت تـستنجد بكفـار مكة وخرج الكفار مجهزين بالخيل وأسلحة القتال المختلفة من سهام وسيوف وحراب. وكـان الكفـار قـد تملكهـم الغـرور والكبريـاء، وظنـوا أنهـم سـوف يرهبون المسلمين ويردّونهم على أعقابهم.

ولكـن الرسـول القائـد - صلوات الله وسلامه

عليه – وصل هو ورجاله إلى (بدر) في نفس الوقت الذي وصل فيه الكفار. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ۞ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾. وتغير الموقف... فبعد أن كانت القافلة هي الهدف من القتال إذا بالمسلمين على أبواب معركة كبيرة مع الكفار. واستشار الرسول القائد أصحابه. فقام ثلاثة من المهاجرين يبايعونه على القتال معه، وهم أبوبكر، وعمر، والمقداد بن عمر.

وكان مما قاله المقداد:

«والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. ولكن نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون».

وقام من زعماء النصار سعد بن معاذ – وقال:

«آمنا بك وصدقنا. وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله...».

وقد سر النبي –صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– وقال:

«سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين – أي القافلة أو النصر – والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم...».

سير المعركة

وفي صباح يوم ١٧/رمضان في السنة الثانية من الهجرة بدأت المعركة بمبارزة فردية بين ثلاثة من الكفار هم: عتبة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وثلاثة من المسلمين هم: حمزة، وعلي، وعبيد بن الحارث، وقد تمكن رجال الإسلام من قتل الكفار. وهنا اشتد غيظ الكفار وزاد هياجهم وبدأ الهجوم، والتحم الجيشان... وكان الرسول القائد –ﷺ– أقرب ما يكون إلى العدو في القتال – وهو يقول:

«والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

وقام جند الله في أول معارك الإسلام بالقتال بكل شجاعة وبسالة وفداء، وأنزل الله ملائكته تثبت الذين آمنوا، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

وأسفرت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين، وأصيب الكفار بهزيمة منكرة وكسرت كبرياء الكفر وصاح الرسول القائد: «شاهت الوجوه».

وتكبد الكفار خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، اذ قُتل سبعون من أشد رجالهم وعلى رأسهم أبو جهل – ألد أعداء الإسلام – وأسر منهم سبعون.

واستشهد من المسلمين أربعة عشر كانوا طليعة شهداء الإسلام. وانتهى ضعف المسلمين وبدأت قوتهم تثبت وجودها إلى جانب الحق وأطلق القرآن على يوم بدر: «يوم الفرقان يوم التقى الجمعان».

كانت مقارنة قوات الجانبين تبين أن قوة قريش التي دفعت لنجدة القافلة – بلغت ٩٥٠ رجلا من المشاة، و ١٠٠ من الفرسان المدرعين. بينما كانت قوة المسلمين ٣١٤ رجلا فقط، ومعهم ٧٠ جملا وبعض الخيول.

وعلى الرغم من ذلك، فقد قرر الرسول القائد – عليه الصلاة والسلام – بعد مشاورة أصحابه ضرورة قتال قريش محافظة على هيبة المسلمين واستمرار الدعوة.

ولما وصل الرسول الكريم ورجاله بالقرب من (بدر) بعث النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– ثلاثة من رجاله للحصول على معلومات عن العدو، ومدى تقدم قريش واستعدادها. فلما وصلوا إلى بئر (بدر) وجدوا غلامين من أتباع قريش يستقيان من البئر، فأخذوهما إلى النبي القائد، فقام باستجوابهما عن عدد أفراد قريش الذين جاؤوا للقتال، فقالا: لا ندري. فسألهما –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– كم تنحرون من الإبل كل يوم؟ فقالا: يوما تسعة ويوما عشرة، فقال النبي الكريم: «القوم – أي الأعداء – ما بين تسع مئة والألف».

وهكذا استطاع الرسول القائد – عليه الصلاة والسلام أن يستنتج عدد المشركين من عدد ما ينحرون من الإبل، لأنه قدر أن البعير الواحد يأكله حوالي مئة رجل.

وكانت أوامر الرسول القائد –ﷺ– بعد أن عدل صفوف المسلمين (إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبال، واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم). والمقصود من هذه الأوامر هو دفع الأعداء بالنبل وهم على مسافة بعيدة، مع احتفاظ المسلمين بنبلهم فهو سلاح القتال المؤثر.

وعندما بدأ القتال بين المسلمين وقريش أشفق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على رجاله الثلاث مئة الذين يقاتلون قرابة الألف من المشركين. فتوجه إلى ربه سبحانه وتعالى بكل جوارحه – حتى أنزل

الله قوله تعالى:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِيْن، إِنَّهم لَهُم الْمَنْصُوْرُوْنَ وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغٰلِبُوْنَ﴾ [ص:١٧٣].

الدروس المستفادة

لقد أبرزت هذه المعركة العديد من الدروس الهامة – وهي:

- القيادة الجماعية:

وذلك عندما أشار الحباب بن المنذر على الرسول القائد –صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن يغير الموقع الذي اتخذه بجوار ماء بدر. واقتنع الرسول القائد برأي الحباب، وأمر المسلمين بالانتقال إلى حيث أشار الحباب. وهكذا ضرب لنا الرسول القائد مثلا للقائد الناجح؛ فإن الأخذ بالمشورة الصالحة من المرؤوسين – هي دليل مشاركة الجميع للقائد – واستفادة القائد من خبرتهم.

- الضبط والربط:

فقد أمر رسول القائد –صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بتأخير قذف السهام من النبال حتى يقترب الأعداء ومنع استعمال السيوف إلا عند اقتراب العدو للقتال المتلاحم. وهذا مبدأ من مبادئ الحرب الحديثة التي تدعو إلى عدم فتح النيران على العدو حتى يصبح في المدى المؤثر للأسلحة المستخدمة.

- الروح المعنوية:

كانت معركة بدر مثلا رائعا على أهمية الروح المعنوية في المعركة، حيث تمكن ٣٠٠ مقاتل من المسلمين من هزيمة حوالي ١٠٠٠ رجل من قريش، ذلك أن المسلمين كانوا يقاتلون عن إيمان وعقيدة، وإن الروح المعنوية التي تأتي عن إيمان بالهدف من القتال، هي التي تثبت الأقدام وترهب الأعداء.

- الاستطلاع:

استخدم الرسول القائد –صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بعض رجاله في الحصول على معلومات عن العدو، قبل دخوله المعركة. وقد نجح في ذلك وتمكن من تقدير قوات العدو بحوالي ١٠٠٠ رجل بعد استجواب الفتيين اللذين تم أسرهما.

- معاملة الأسرى:

تمكن المسلمون في هذه المعركة من أخذ الكثير من الأسرى. وقرر المسلمون أخذ فداء منهم نظير إطلاق سراحهم. وقد وضع الرسول القائد –ﷺ– مبادئ معاملة الأسرى معاملة كريمة وعدم إيذائهم – فقال لأصحابه: «استوصوا بهم خيرا».

المدارس الإسلامية .. منارات علم ومعرفة

بقلم: **د. أمل الحريث**

اهتم المسلمون بالتعليم اهتمامًا بالغًا، واعتبروا ذلك مظهرًا من مظاهر الرقي والتحضر. وكانت حلقات الدروس تعقد ضمن المساجد الجامعة في القرون الأولى من الإسلام، إلى أن اتسعت دائرة المعرفة فخصص الأساتذة في منازلهم قاعات يلتقون فيها بطلابهم، ولما كثر عدد الطلاب وضاقت بهم قاعات المنازل، أنشئت أماكن مستقلة هي المدارس.

رسالة المسجد التعليمية

وكانت الحركة التعليمية في الإسلام قد بدأت مع بداية الدعوة الإسلامية، حيث كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتمع بأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أو في بيته، ليعلمهم ويرشدهم، ويدعم إيمانهم بالله وبمستقبل الدعوة. وحينما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة، وأخذت دعوته في الذيوع والانتشار، شهد مسجد قباء، ثم المسجد النبوي الشريف دوحة العلم والمعرفة وهي تنمو مسرعة. ولم يكن التعليم مقصورًا على الرجال، فقد خص الرسول ﷺ، يومًا لتعليم النساء التعليم الديني والإجابة على أسئلتهن، وفي العهد الراشدي أرسل عمر بن الخطاب إلى الأمصار معلمين لتعليم الصبيان من المدينة، وقد أعطى الخلفاء الراشدون للعلوم الدينية مكانة أكثر من العلوم الدنيوية في مستهل الدعوة. وهذا لا يعني أن العلوم الدنيوية كانت تهمل؛ بل كانت تدرس إلى جانب العلوم الدينية في المساجد والكتاتيب.

وتوالت الأيام وتتابعت السنون، ومراكز الثقافة والمعرفة في المجتمعات الإسلامية تتعدد منابعها، وتتنوع روافدها، وكانت حلقات الدروس في المساجد محل تسابق وازدحام من طالبي العلم، ومن العلماء. وكان العالم منهم يستند إلى أسطوانة أو عمود من أعمدة المسجد، يتحلق حوله تلاميذه، وإلى جواره يستند آخر، وثالث، ورابع، يلزم كل منهم أسطوانة أو عمود، ومن هنا جاءت تسمية (أساطين العلم) (جمع أسطوانة).

وقد ساعدت هذه الحلقات مع مرور الأيام، سواء ما كان منها في المساجد أم في دور العلماء، الكثير من الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة على أن يصبحوا مع مرور الزمن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة.

وامتدت رسالة المسجد التعليمية إلى الأندلس، فأنشأ عبد الرحمن الناصر أعظم جامعة؛ بل أول

جامعة حقيقية في العالم في جامع قرطبة الرئيس، وكان التعليم فيها بالمجان، وقد جذبت إليها الطلاب من مختلف أجزاء أوروبا وآسيا وأفريقيا، وجلب إليها العلماء من المشرق مثل ابن القوطية مدرس النحو، وأبي علي القالي صاحب كتاب (الأمالي). وعلى الرغم من انحسار مهمات المسجد الثقافية والتعليمية في عصرنا، فما زالت بعض المساجد والجوامع تحتفظ بمكانتها الدينية والعلمية كجامع الأزهر، الذي ما زال يحتفظ بمكانته العلمية سواء بالنسبة إلى علوم الدين أم علوم الدنيا.

طريقة التعليم

تشير المصادر التاريخية إلى أن أبا الدرداء كان قارئ الشام، وعبادة بن الصامت كان معلم فلسطين، فكان أبو الدرداء يبتدئ كل غداة بعد الصلاة فيقرأ جزءًا من القرآن الكريم وأصحابه محدقون به، فإذا فرغ من قراءته قام كل رجل إلى موضعه، وجلس على العشرة الذين أضيفوا إليه، وإلى جانب قراءة القرآن الكريم كان يتم تعليم الحديث والتفسير والفقه، وكان المسجد يرحب بكل طالب علم أيًا كانت جنسيته، وكان الشيخ يجلس على خشبة صغيرة أو كرسي.. ويستهل درسه بالبسملة ثم يتلو بعض آيات القرآن الكريم أو الحديث الشريف.. ويلقي من محفوظاته درسه ويملي إملاءً.. ويعقبه بالشرح والتفسير، ويكتب الطلاب على هوامش الأمالي الشروح والتفاسير، فإذا فرغت الفقرة وضع المعلم خطًا مائلًا لتحديد ما وصل إليه في درسه.

المدارس الإسلامية

كل الطلاب يلتحقون بالمدارس، بعد أن يكونوا قد حضروا حلقات دراسية في المساجد، وهكذا كانت المدرسة معهدًا للتعليم العالي، وكانت بعض المدارس الإسلامية تهتم بتدريس وتحفيظ القرآن الكريم والحديث والفقه واللغة العربية، وبعضها الآخر امتدت اختصاصاتها لتشمل مختلف العلوم، وخاصة الطب والصيدلة والفلك والكيمياء وعلم الأحياء.. الخ. فكانت كلمة مدرسة تطلق على المدارس التي تهتم بالعلوم التطبيقية، كالطب وعلم الأحياء والفلك. وبالإضافة إلى قيام هذه المدارس بتقديم العلوم والمعارف، كانت تحوي أماكن لسكن الطلبة ونومهم وطعامهم، وقد قسمت هذه المدارس حسب المذاهب الأربعة في الإسلام. وهناك بعضها يشترك فيه مذهبان أو أكثر. ومن المعروف أن بناة هذه المدارس قد أوقفوا لها وقفًا من المحلات والمتاجر لتستمر على ريعها.

بداية ظهور المدارس

اختلفت الروايات في أول من بنى المدارس فقال الزركشي: «أول من بنى المدارس في الإسلام الوزير السلجوقي قوام الدين نظام الملك وكان قد بنى المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٥م) لكن الحافظ شمس الدين الذهبي، أنكر

في كتابه «تاريخ الإسلام»، أن يكون نظام الملك أول من بنى المدارس وقال: «كانت المدرسة البيهية بنيسابور موجودة قبل أن يولد نظام الملك». ويدعم هذا الرأي ما ذكره المقريزي عن نشأة المدارس في الإسلام حين قال: «والمدارس بما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربع مئة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت المدرسة البيهية، وبني بها أيضًا الأمير نصر الدين بن سبكتكين مدرسة).

ومهما اختلفت الروايات في أول من بنى المدارس في الإسلام، تبقى الغاية من إنشاء المدارس هي التدريس، إضافة إلى إعداد مكان ملحق بموضوع التدريس وهو (المسجد الجامع) لسكن طبقة مختارة من المدرسين والطلاب أو لسكن الشيوخ والفقهاء. ويستدل على ذلك بعدة نصوص تاريخية منها ما جاء في كتاب الحوادث الجامعة (لابن القوطي) عن المدرسة المستنصرية وكذلك نص مسجل حول باب المدرسة السلطانية بحلب، وبناء على ذلك فقد عرف د. أحمد فكري المدرسة في الإسلام بأنها المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكن فريق من الفقهاء أو الطلاب، ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم، ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة، وأجريت عليهم الجرايات الوافرة.

تصاميم المدارس

بدأ تصميم المدارس بسيطًا فكانت المدارس الأولى تتكون من إيوان واحد، وتقصر نفسها على تدريس مذهب واحد، ثم أخذت تتدرج في النمو فظهرت المدارس التي بها إيوانان وضعا على ضلعين متقابلين بينهما صحن مكشوف. والإيوان عبارة عن قاعة لها ثلاثة جدران، اثنان يحفان بها من الجانبين، والجدار الثالث في صدرها، أما الرابع فيفتح بكامل عرضه على الصحن. ويشغل الصحن والإيوانات الجزء الأوسط من البناء، وتوضع في الأركان والأجزاء الباقية المحصورة بين الإيوانات والجدران الخارجية حجرات وحواصل (أي مخازن)، وخلوات لتصبح المدرسة مقرًا للأساتذة والطلاب، تلقى في إيواناتها الدروس وتتخذ الحجرات سكنًا دائمًا طوال مدة الدراسة. إلا أن ذلك النظام تطور في العصر المملوكي مرة أخرى إلى صحن وأربعة إيوانات في أضلاعه.

بعض المدارس الإسلامية القديمة

* **مدرسة السلطان حسن بالقاهرة:** تم بناؤها سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م وتقع في ميدان قريب من قلعة صلاح الدين. تعتبر من أكبر مدارس المماليك، تضم أجنحةً سكنية حول فناء يحتوي على أربعة إيوانات؛ لأن المدرسة كانت مخصصة للمذاهب الأربعة، وهي أول مدرسة بعد مدرسة الفردوس الأيوبية في حلب تحدث فيها أجنحة سكنية مستقلة

عن المدرسة.

* **مدرسة العطارين بفارس**: وتسمى المدرسة العظمى أيضًا، بنيت عام ٧٢٣هـ في عهد أبي سعيد عثمان. وقد وضع السلطان أبو سعيد الحجر الأساسي لبنائها واشترى لها عددًا من العمارات، وكان بها ما بين ٣٠ و ٥٠ غرفة لإقامة الطلبة، وكان بها أساتذة نظاميون.

* **المدرسة العمرية بدمشق**: أنشأها المجاهد أبو عمر أحمد بن محمد المقدسي سنة ٦٠٣هـ وتقع في حي الصالحية. وأوقفها على علوم القرآن، ثم أصبحت تدرس فيها جميع العلوم. عرفت المدرسة توسعات وإصلاحات وزيادات في بنائها، حتى أصبحت تضم ٣٦٠ غرفة تستوعب ٥٠٠ طالب علم. فيها قسم لتعليم فاقدي البصر وآخر لتعليم الصبيان. وكانت بها مكتبة كبيرة، استخدامها مباح للجميع، وأوقاف كثيرة. وكانت تفتح مطابخها للناس في رمضان.

* **المدرسة الغزالية بالقدس**: أسست في عهد نورالدين محمود زنكي، واهتم صلاح الدين بإصلاحها، وجعل النظر والتدريس فيها لقطب الدين مسعود النيسابوري الشافعي. تعرف بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالي الذي اعتكف فيها وأتم بها كتابه (إحياء علوم الدين) أصبحت زواية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو.

* **مدرسة قايتباي بمكة المكرمة**: تقع قرب المسجد النبوي. بناها السلطان قايتباي، وكانت لتدريس المذاهب الأربعة ورباطًا لسكن الفقراء، بها ٧٢ خلوة للأيتام. وألحق بها مكتب لتعليم الصبيان اليتامى، وخصص للفقراء ما يكفيهم من القمح. وأوقف عليها بعض الدور بمكة المكرمة وبعض القرى والضياع بمصر للإنفاق عليها.

هذا غيض من فيض عن بعض المدارس الإسلامية التي كانت مركز إشعاع علمي وحضاري امتد إلى جميع أصقاع العالم، وخاصة العالم الإسلامي.. واليوم ... ونحن نستعيد في ذاكرتنا وأذهاننا هذه المدارس وتصاميمها وطرق وأساليب التدريس فيها، إنما نستعيد ما كانت عليه الثقافة العربية في الحضارة الإسلامية، حيث الرغبة الصادقة في العلم للظفر بالأجر والثواب لقوله تعالى (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا).. ولقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ولا يجهل أحد ما للحافز الديني من أثر في النفوس والهمم في ذلك الزمن.

* * *

المراجع:

- زيغريد هونكة، شمس العرب تشرق على الغرب.
- هاني محمد مهدلي، مجلة الفيصل – العدد ٦٦ أكتوبر ١٩٨٢.
- محمد علي بلاسي، مجلة الكويت – العدد ٦٠ أغسطس ١٩٨٧.
- الزبيد مهداد، مجلة الفيصل – العدد ٢٤١ ديسمبر ١٩٩٦.
- عبد اللطيف ارناؤوط: مجلة الحج والعمرة – العدد ١ السنة ٥٩، مارس ٢٠٠٤.

* * *

التشبه بالنساء والرجال

بقلم: **الدكتور محمد محمد الشريف**

عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: «لعن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(1).

إن خلق الذكر والأنثى من آيات الله العظام الدالة على كمال علمه وحكمته وقدرته وعظمته، فكل منهما يميل إلى الآخر، ويشعر في جواره بالسكن والمودة والرحمة، وبهذا تستمر الحياة ويسعد الأحياء، ولا يستطيع ذكر مهما بلغ من جاه أو مال أو شرف أن يستغني عن الأنثى، ولن تستطيع الأنثى كذلك أن تستغني عن الذكر؛ ولذلك ربط الله بينهما بالرابطة القوية وهي الزواج. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١).

وقد تعالت حكمة الله تعالى فخصص لكل نوع وظيفةً هامةً لا يقوم بها غيره وهيأ لكل من الأسباب والوسائل ما يُمكِّنه من النهوض بهذه الوظيفة وبهذا يكون التكامل البشري في أرقى صوره، فوظيفة الرجل الخلافة في الأرض وتعميرها والمشي في مناكبها لابتغاء فضل الله ورزقه. وقد أعطاه الله من القوة والتحمل والصبر والجلد ما يهيئه لهذا، وسخر له الكون وأعطاه من العقل والحكمة ما يحسن به تدبير أموره وما يصلح به شأنه؛ ولذلك كان الرجل جلدًا قويًّا متعقلًا مفطورًا على الكدح والسعي!.

وأما المرأة فوظيفتها الأولى إنجاب الذرية، وحملها، ووضعها، وإرضاعها، وتعهدها، ورعايتها، وتربيتها، والقيام عليها، بينما يشغل الرجل بواجباته.

وما أجل هذه الوظيفة التي تتميز بها المرأة، ولقد فطرها الله وهيأها للقيام بهذه الرسالة. فجعل نفسها مليئة بالعطف والرحمة والحنان، وجعلها تحن إلى الصغار وتميل إلى تعهدهم منذ نعومة أظافرها، ولذا فإنها تحب العرائس من اللعب لتستعد بفطرتها لوظيفتها، كما أنها تحب القرار في البيوت وتنفر من الخروج منها لغير ما حاجة، وقد أعطيت من الصبر على الحمل والوضع والإرضاع والتربية ما يسهل عليها هذه المهمة الشاقة، كما أنها تخضع بذاتها

لزوجها وتنقاد لأمره.

ولقد جعل الله تكوينها البدني والنفسي مهيئًا لهذه العمليات التي لا يقوم بها إلا المرأة؛ بل إن تكوين المرأة كله يدور في محيط هذه الوظيفة؛ ولذلك كانت المرأة القرار المكين الذي تتجلى فيه آيات الله الباهرة في تكوين الجنين في أطواره المختلفة فتبارك الله أحسن الخالقين. ووظيفةٌ هذا شأنها وهذه منزلتها جديرة بأن تتفرغ لها المرأة وتوفر جهدها عليها، وجدير بالمجتمع أن يقدر لها قدرها وأن يرعاها أحسن رعاية.

ولا ننسى أن المرأة تساعد الرجل على القيام بوظيفته خير قيام فتعينه على التعفف والاستقامة، وتتعهد حاجياته الضرورية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وتتعهد أولاده، فيكون فارغ البال لعمله هادئ النفس، وعلى هذا فطرت المرأة منذ نعومة أظافرها فتشعر أن هذه الوظيفة من أجمل أمانيها وأحلى آمالها مهما بلغت من الدنيا!. وإذا قام كل من الرجل والمرأة بما هو مفطور عليه استقامت الأمور، وسعد الناس، وعاشوا عيشةً راضيةً، لاستقامتهم على الفطرة التي فطرهم الله عليها.

ولقد أراد الله سبحانه – وله الحكمة البالغة – أن يجعل الذكر أفضل من الأنثى، وأن يكون له السيادة والقوامة عليها، وهي قوامة وسيادة قائمة على الفطرة السليمة التي خلق عليها كل من الذكر والأنثى، وهي كذلك قائمة على التبصر والحكمة والقدرة على تحصيل مطالب الحياة قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(النساء:٣٤)، مع أنهما يستويان في الحقوق والواجبات، فلكل منهما حق على الآخر، فكما أن على الرجل أن يسعى، فعلى المرأة أن تقوم بالإعفاف والخدمة، وكذلك يستويان في الأمر بالعمل الصالح وجزائه؛ ولكن الله سبحانه قد كلف الأنثى ما يناسب فطرتها فأعفاها من الصلاة والصيام عند الحيض والنفاس، وجعل صلاتها في بيتها أكرم من صلاتها في المسجد وجعلها لا تتطوع بالصيام إلا بإذن زوجها. قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)، وليست القوامة قائمة على التحكم والتسلط والعدوان، ولذلك كان أعظم الناس حقًّا على الرجل أمه وعلى المرأة زوجها والله سبحانه عزيز لا يغلب، حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، عليم بما يصلح الكون ويسعد البشر، وقد اقتضت حكمته هذا الصنع المتقن البديع، وإن من نعم الله على الرجل أن يختاره الله هكذا رجلًا له القوامة والسيادة قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦) فعليه أن يقدر النعمة ويصونها

ويجعلها شكرًا للمنعم حتى تدوم له ويزيده منها، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف:٣٧)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦-٨) ولقد كان جديرًا بالرجل والمرأة أن يرضى كل منهما بما كلفه من مهام ليعيش حميدًا سعيدًا؛ لكن الشيطان الرجيم - وقد قعد للناس يصدهم عن الصراط المستقيم - جعل البعض يعترضون على أمر الله فيهم ويتركون مهامهم المنوطة بهم، ولذا نرى بعض الرجال لا يقدر نعمة الرجولة، ويقوم بكل عمل ممكن ليكون شبيهًا بالأنثى في هيئتها وزينتها وسلوكها، وكذلك نرى بعض الإناث يتأبين على الفطرة ويحاولن الظهور بمظهر الرجال والتساوي بهم، وهذا انتكاس بالإنسانية وتمرد على الفطرة الربانية لا يجني منه المجتمع إلا الشر المستطير والخطر الكبير، ولقد حذر الله تعالى الإنسان من تمني ما ليس من شأنه، فلا يتمنى الذكر أن يكون أنثى أو كالأنثى، ولا تتمنى الأنثى أن تكون ذكرًا أو كالذكر، قال تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢) ولهذا حذر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أشد التحذير من الانتكاس بالفطرة وتغيير صنع الله البديع المحكم، ومن الاستجابة لكيد الشيطان اللعين الذي تهدد بني آدم بالإغواء والإضلال، ولذلك أخبر -ﷺ- أن الله سبحانه قد اشتد غضبه على قوم رغبوا عن خلقه وتشبهوا بالنساء[٢].

وفي الحديث المصدر به البحث يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: «لعن رسول الله ﷺ» واللعن هو الطرد، فقد دعا رسوله الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على من فعل ذلك بالطرد وهو البعد عن رحمة الله تعالى، كما أخبر -ﷺ- أن من فعل ذلك فقد أحل بنفسه الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى.

هذا، واللعن الصادر منه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على ضربين: أحدهما يراد به الزجر عن الشيء الذي وقع اللعن بسببه، وهو مخوف؛ فإن اللعن من علامات الكبائر، والآخر يقع في حال الحرج وذلك غير مخوف؛ بل هو رحمة في حق من لعنه بشرط أن لا يكون الذي لعنه مستحقًّا لذلك، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهم إني اتخذت عندك عهدًا لا تخلفنيه فإنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته شتمته لعنته جلدته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً تقربه بها إليك يوم القيامة»[٣]. وفي حديث أنس -رضي الله عنه-: «إنني اشترطت

على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما عبد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهورًا وزكاةً وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة»(٤) ولقد كان -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في نهاية الشفقة والرحمة بأمته. ومعنى كونه «ليس لها بأهل» أي في حقيقة الأمر عند الله تعالى؛ ولكنه في ظاهره مستوجب لذلك بأمارة شرعية، وهو -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحكم بما ظهر له والله يتولى السرائر.

وقيل: إن ما وقع منه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من ذلك ليس مقصودًا؛ بل هو مما جرت به العادة وسبق به اللسان، ولا يراد حقيقة الدعاء فخاف أن يصادف شيئًا من ذلك إجابة فسأل الله أن يجعل ذلك خيرًا لصاحبه، ولم يكن يقع منه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذلك إلا نادرًا لسعة حلمه وعفوه، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا لَعَّانًا؛ بل كان رفيقًا حليمًا يحب الرفق في الأمر كله.

ولا ريب أن المتشبه بالمرأة والمتشبهة بالرجل يستحقان اللعن والطرد من رحمة الله إن لم يتوبا، والسر في هذا أن في التشبه تمردًا على فطرة الله تعالى، واستجابةً لكيد الشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم تكبرًا، فطرد من رحمة الله تعالى، فأراد لبني آدم أن يكونوا مثله في ذلك، فأتاهم من كل سبيل ليضلهم ويغويهم ولقد تجاسر الشيطان الرجيم وأبان عن وظيفته الخبيثة فقال: ﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ (النساء:١١٨-١١٩) وفي هذا ضلال مبين، إذ أنه لا يرضى بصنع الله الذي أتقن كل شيء، ولا يروقه حسن الصنعة، وعظمة الصانع القادر، وهو -سبحانه- ما خلق كل شيء إلا بالحق، ولم يخلق شيئًا عبثًا ولا باطلًا؛ ولكن الإنسان لضعفه أمام الشيطان وغروره ومكره يرضخ له ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولذلك فإن التشبه من الكبائر، لاستحقاق فاعله لعنة الله تعالى كما أخبر بذلك رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يقال: شبهت الشيء بالشيء أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما، وأشبه الولد أباه وشابهه إذا شاركه في شيء من صفاته. والصفة المشترك فيهم قد تكون ذاتية، كما يقال: هذا الدرهم كهذا الدرهم، وقد تكون معنوية، نحو زيد كعمرو أي في استقامته وورعه مثلًا، ويقال: تشابه الرجلان إذا تساويا.

فالتشبه إذن هو تكلف المشاركة والاتفاق في معنًى من المعاني، وتشبه الرجل بالمرأة أن يتصنع أن يكون مثلها في خاصية من خواصها وفي مظهر من مظاهرها، ولقد فطرت المرأة على حب التزين والتجمل لتكون محبَّبَة إلى الرجل، وقد أحل الشارع الحكيم لها أن تلبس الحرير، وأن تتحلى

بالذهب، ومنع من ذلك الرجل، كما أن المرأة تحب الألوان الزاهية والبراقة لما فيها من زينة ظاهرة تلائم فطرتها، كما أن العرف على أن للمرأة ثيابها الخاصة بها في صفتها وهيئتها. ولقد فطر الله المرأة على الحسن والجمال غالبًا، وسوّى لها أعضاءها على أتم ما تكون حسنًا وجاذبيةً، وزودها بالشعر الغزير في رأسها ليزيدها جمالًا وحسنًا، في حين أنها فطرت على أنه لا شعر لها في وجهها وفي بعض أعضائها، لأن ذلك حسن يلائمها. وقد أباح الشارع الحكيم لها أن تتجمل بكل ذلك التجمل الفطري الشرعي، وللمرأة صوتها العذب الرقيق و بدنها الضعيف.

إن هذه الأمور ونحوها خاصة بالنساء تلائم فطرتهن، فإذا تكلف الرجل شيئًا منها وعمد إلى الاتصاف بها؛ فقد تشبه بالمرأة، واستحق اللعنة، فإذا بالغ في التزين والتجمل وجعل كل همه الاعتناء الزائد بالزينة فقد تشبه بالمرأة، وإذا لبس الحرير أو تحلق بالذهب في أصبعه أو وضعه على صدره فقد تشبه بها.

وإذا اختار الألوان البراقة لثيابه أو لبس نعلًا يشابه نعلها فقد تشبه بها، وإذا ترك شعر رأسه لينمو ويكثر وصنع به كما تصنع بشعرها، فقد تشبه بها.. وإذا أزال ما في وجهه من شعر اللحية فقد تشبه بها، وإذا حاول التثني والتكسر في كلامه وهيئته ومِشْيته فقد تشبه بها، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على ضعف الدين وضعف الرجولة وضعف الذات وفقد الغيرة والنخوة والمروءة والشهامة، وعلى الميل إلى مظاهر الخِسَّة والدناءة، وهذا هو التخنث المَقِيْت الذي لُعِن صاحبُه، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «لعن النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال: «أخرجوهم من بيوتكم»، قال: «فأخرج النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلانًا وأخرج عمر فلانًا»[٥]، والمخنث هو المؤنث من الرجال وهو من يتشبه بالنساء في هيئاتهن وحركاتهن وثيابهم وفي كلامهن وأخلاقهن، وإنما يُذَمَّ من تكلف وتصنع، وأمَّا من كان من أصل خلقته مشَبَّهًا للمرأة في رقة الصوت وتكسره وفي هيئته وحركته، فلا ذم ولا لوم؛ لأن الذم واللوم لمن تكلف وتعمد وتصنع، كما يفهم ذلك من لفظ «المتشبهين» وغيره لم يتعمد وليس في وسعه وطاقته غير هذا، ومن كان مشبهًا للمرأة من أصل الخلقة يؤمر بتكلف تركه ومعالجة نفسه، ومداواة قصورها شيئًا فشيئًا حتى يصير رجلًا سويًّا، فإن فعل هذا ولم يقدر على العودة إلى أصل الرجولة ولم يوفق لترك ما هو من خصائص المرأة، فلا لوم عليه ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ومن لم يعالج نفسه؛ بل تركها وشأنها وتمادى في ذلك فهو مذموم، لا سيما إن بَدَا منه ما يدل على الرضا به، قال

النووي: «فمن خلق كذلك ولم يتكلف التخلق بأخلاق النساء وزِيِّهن وكلامهن وحركاتهن؛ بل هو خلقه الله عليها فهذا لا ذم عليه ولا عتب ولا إثم ولا عقوبة لأنه معذور لا صنع له في ذلك». وقال: «ومن لم يكن ذلك له خلقة؛ بل يتكلف أخلاق النساء وحركاتهن وهيئاتهن وكلامهن ويتزيا بزِيِّهن، فهذا هو المذموم الذي جاء في الأحاديث الصحيحة لعنه»(٦).

ولقد شاع تشبه الرجل بالمرأة لدى الكفرة الذين ضلوا عن دينهم، وأصبح دينهم هو الشهوات، يبحثون عنها، ويستمتعون بها بكل وسيلة، وقد فقدوا رجولتهم وكرامتهم، فصاروا عبيدًا للشيطان وللنساء، وهم بفعلهم هذا يرغبون في التقرب إلى المرأة ويطلبون ودها، ويوقعونها في حبائل الهوى لينالوا منها لذتهم.

وأما المسلمون فلهم من دينهم ورجولتهم ومروءتهم وأنفتهم ما يمنعهم من هذا التدني والسقوط.

ولقد شذ البعض فتشبه بهن، ونسي هؤلاء أن المرأة لا تريد من هو مثلها ومن يخضع ويركع لها، إن المرأة لا تميل إلى الرجل الذي هو كالمرأة، وإنما تريد رجلًا كامل الرجولة يعطيها ما تفقده من نفسها ومن بنات جنسها، وترى فيه السيد المطاع والآمر الحازم والرجل الشهم، إنها تريد رجلًا قوي الدين قوي الشخصية يَغَار عليها ويدافع عنها ويوَفِّر لها كل ما تريد، وهي بفطرتها تميل إلى الخضوع له والاستسلام لأمره، وإن الكفرة وقد ضلوا السبيل يريدون بنا أن نصير مثلهم، وبعد أن أفسدوا الضعيفات من النساء يحاولون إفساد شباب الإسلام والقضاء على ما لديهم من بقية من رجولة وحمية، ولكي نقضي على هذه الظاهرة الشاذة يجب أن نعود بالشباب إلى دين ربهم، حيث العفة والطهارة والإباء والرجولة، وما أكرم هذا الشباب الذي ينشأ على عبادة ربه، إنه يتأبى على كل هذه الانحرافات ولا يأبه لها.

وأما المرأة المترجلة فهي التي تتشبه بالرجال وتحاول أن تظهر بمظهرهم، فالرجل له ثيابه الخاصة به في هيئتها، وقد خلق الرجل للعمل والسعي والمشي في مناكب الأرض طلبًا للرزق وابتغاء من فضل الله، فإذا لبست ثياب الرجل فقد تشبهت به واستحقت اللعنة، ولا ريب أن هذا الثوب تجعله بصورة تزيد في زينتها، وتزيد الرجال فتنةً بها، وكثيرًا ما يكون ضيقًا ملتصقًا بالجسم، فيبرز محاسنها ويصور أعضاءها تمامًا، وهذا يزيد الفتنة اشتعالًا، ويزيد الرجال ضعفًا وعجزًا عن مقاومة إغراء المرأة، هذا وقد تقص شعرها من غير حاجة كما يقص الرجل، وقد تذهب في ذلك إلى الرجل يقصه ويصففه لها، وفي ذلك جرائم خلقية شتى لا

يـرضى بهـا صـاحب مـروءة وغـيرة. والمـرأة شـأنها القرارُ في البيوت والقيام بمصالح الرجال فيها، من تربية أولاد وإعداد طعام وتنظيف مسكن وثياب... فإذا تركت بيتها كما يفعل الرجل وفرَّت إلى الشوارع والأسواق لغير ما حاجة، فقد تشبهت بالرجل، وإذا زاحمت الرجالَ بمنكبيها وتركت حياءها الفطري وراءها ظهريًّا سعيًا وراء المال فقد تشبهت بالرجل، وهي بذلك تفرّ من مملكتها الكريمة، ومن عرشها المصون، وتترك البيت والأولاد للخدم والشوارع ودور الحضانة أو للأقارب والجيران، ولا ريب أن ذلك يؤدي إلى سوء أخلاق النشء، وفساد طباعهم لأنهم فقدوا حنان الأمومة الحقيقية ورعايتها وتربيتها، ولم تَجْنِ الأمة من جراء ذلك إلا الشر والضياع والانحلال والضعف، والحق أن أكرم شيء للمرأة أن تلزم بيتها، وأن تقوم بحق زوجها وحق أولادها، فهذه المرأة هي العاملة الناجحة التي تؤدي لأمتها دورًا جليلًا لا يقوم به غيرها، وحسنُ قيامِ المرأة بهذه الواجبات يعدل ما للرجل من أعمال البر كالحج بعد الحج والجهاد والجمعة والجماعة، فهي تقوم بأقدس الأعمال وأشرفها وأنفعها، إذ توفر للرجل كلَّ ما يُعينه على أمور دينه ودنياه، وتربي للأمة الأجيال الصالحة، ومثل هذه المهمة جليلة وسامية، وهي تستغرق كل وقتها، ولا تجد فراغًا لتستريح فيه من هذا العناء، فحق على الأمة أن تكافئ مثل هذه المرأة وأن تقدر لها جهدها، فإذا فقدت المرأة عائلها، وجب على الأمة أن تتعهدها وترعاها، وإذا لم تجد من يقوم بحاجتها، فلا بأس بأن تسعى على معاشها متأدبةً بآداب الشريعة الغراء، من تصوُّن، وتستّر، وعدم اختلاط، أو اختلاء بالرجال، وأما خروجها لطلب المال من غير ما حاجة، فهو في الحقيقة ضار بالمرأة، وبالأسرة، وبالأمة، وإن العرف يسميها بالعاملة، وهي في الحقيقة هاربة عاطلة، لأنها تركت واجبها الملزَمَة به، لتجلس على المكتب، أو تبيع أو تأخذ ثمن ما يباع، لقد جعلوها سلعةً تستهوي أنظار الرجال ليتعاملوا معها فتروج التجارة.

وهذا لا يليق وكرامةَ المرأة، كما أنها لا تقوى على تحمل أعباء العمل ومشاقه؛ لأن فطرتها غير مهيأة لذلك، وكثيرًا ما تعجز عن عملها وتكله إلى غيرها من الرجال، لتشغل نفسها بما يخف عليها من طعام وشراب وقراءة مسلية ونحو ذلك، كما أنها لا تسلم من الرجال ولا يسلم الرجال منها وإن كانت غير متبرجة، ومروءة الرجل وغيرته لا تسمح له بأن تجلس زوجه بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها، وتتحدث إليهم ويتحدثون إليها.

أضف إلى ذلك هذه الأموال الطائلة التي تقتطعها من أموال الأمة، وهي تنفق في غير ما حاجة أو مصلحة، إنما تبدد على أحدث ما في العصر من

ثياب وزينة ومظاهر براقة، ولا تستفيد الأسرة من ذلك بقليل ولا كثير، ولقد كان الأولى بها أن تستقر في بيتها لتصلح من شأنه وتوفر ما تأخذ ليعطى للرجال الذين ينفقون على النساء والأولاد، ويكون ذلك سببًا في خفة حدة كثير من مشاكل وسائل المواصلات وارتفاع الأسعار. ومن الإنصاف أن نقول: إن المرأة وظيفتها في بيتها، ومهما جمعت من مال، ومهما بلغت من منصب وجاه، فإنها تحِنُّ إلى عش الزوجية وإلى حياة الأمومة وإلى تربية الأطفال، ولا يصرف بالها عن ذلك أي صارف، ومن الإنصاف أن نقول أيضًا: إن عمل المرأة خارج البيت يُفقِدها كثيرًا من خصائص الأنوثة التي تجذب الرجال إليها، فالصوت تذهب رقته، والحياء يقل أو ينعدم - والحياء مفتاح الطهر والعفة والشرف للمرأة - و يجعلها تنظر إلى غير زوجها ممن يفوقه مالًا أو جاهًا أو حسنًا.

ولضعف المرأة فقد قلدت الرجل وتشبهت به في كل شيء، حتى فيما يضر بالصحة ويذهب بالمال ويؤدي إلى نفرة الناس وكراهيتهم، ولقد رأينا بعض النساء من أهل الترف والغناء والتمثيل يشربن الدخان كما يشرب الرجال، ويعددن هذا من مظاهر المدنية والرقي، وما هو إلا انحطاط وهوى، وما أعظم المضار التي تترتب على الدخان حتى عده الكثير من العلماء حرامًا، وما أشد ندامةً صاحبه عند الكبر ويوم القيامة، ولقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: «لعن رسول الله -ﷺ- الرجل يلبس لِبْسة المرأة والمرأة تلبس لِبْسة الرجل»[٧].

ولم يكتف سيدنا رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بزجر المتشبهين بالنساء لبيان أنهم مطرودون من رحمة الله تعالى إن لم يتوبوا؛ بل أمر بإخراجهم من البيوت، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «لعن النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم»، قال: «فأخرج النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلانًا وأخرج عمر فلانًا»[٨].

وقد أخرج -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنجشة - وهو العبد الحبشي الأسود - وكان غلامًا لنبي الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وكان حسن الصوت وكان يحدو بأمهات المؤمنين ونسائهم، وقد روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أتي بمخنث خضب يديه ورجليه، فقيل: «يا رسول الله إن هذا يتشبه بالنساء»، فنفاه إلى النقيع فقيل: «ألا نقتله» فقال: «إني نهيت عن قتل المصلين»[٩] وعن أم سلمة -رضي الله عنها- أن النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان عندها وفي البيت مخنث فقال لعبد الله أخي أم سلمة: «يا عبد الله، إن فتح لكم غدًا الطائف فإني أدلك على بنت غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. فقال النبي -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا يدخلنَّ هؤلاء عليكن»[١٠].

وكان هذا المخنث يدخل على نسائه -صلى الله عليه وسلم- ونساء الصحابة؛ لأنه كان يعتقد أنه من غير أولي الإربة، أي ممن لا حاجة له في النساء ، كما في حديث عائشة -رضي الله عنها-: «كان يدخل على أزواج النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مخنث فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة»[١١]، وإنما أبيح دخول من لا إربة له في النساء؛ لأنه ليس كامل الذكورة وفيه نوع من الأنوثة، فلا يشتهي النساءَ إذا دخل عليهن، فلما سمع منه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا الكلام الدقيق في وصف محاسن النساء، علم أنه من أولي الإربة وأصحاب الميل إلى النساء، ولكنه يتستر ويخادع، ولقد وصف محاسن المرأة وعورتها بحضرة الرجال، وقد نهي أن تصف المرأة المرأة لزوجها خشية افتتانه بها فكيف إذا وصفها الرجل للرجل.

ولقد ظهر أن هذا المخنث كان يطلع على ما لا يطلع عليه كثير من النساء من عوراتهن ومحاسنهن ولقد روي أنه وصف منها ما يُستَهجن ذكرُه ويفحش الاطلاع عليه، ولذلك منعه -صلى الله عليه وسلم- من الدخول على نسائه، ومنع نساءه من الظهور عليه؛ لأنه له حكم الفحول من الرجال الراغبين في النساء، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا يدخل هؤلاء عليكن» والداخل كان واحدًا، وهو المخنث، وإنما جمع إشارةً إلى جميع المخنثين لما رأى من وصفه للنساء، ومعرفته ما يعرفه الرجال منهن، ويمنع كذلك حرصًا على حرمة البيوت وصيانةً لها، وحفاظًا على العفة والفضيلة وحتى لا يروا النساء في زينتهن، فتحصل الفتنة والشهوة، ومنعًا لمن يتظاهر بأنه لا إربة له في النساء وقد يكون في الحقيقة غير ذلك، ولم يكتف -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بذلك؛ بل أمر بإخراجهم من المدينة، وعزلهم عن الناس ونفيهم بعيدًا عن النساء. وقد ذكر العلماء أن اسم هذا المخنث «هِيْت» بكسر الهاء وسكون الياء وبالتاء، وقيل: «هنب» بالنون والباء وهو الأحمق، وقيل: «ماتع» مولى فاختة المخزومية، وقيل: «مانع» والمحفوظ أنه «هيت»، ولقد نفاه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المدينة إلى موضع بالبيداء يسمى الحمى، وكان يدخل كل يوم جمعة إلى المدينة يستطعم الناس، ثم يعود إلى منفاه، وقد روي أن سعدًا خطب امرأةً بمكة فقال هيت: «أنا أنعتها لك»، وكان يدخل على سودة، فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ما أراه إلا منكرًا» فمنعه، ولما قدم المدينة سيره إلى خاخ، ولعل هذا تكرر منه فنفاه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مرات. وقد أخرج عمر -رضي الله عنه- من المدينة من كان كذلك، فلقد سمع قومًا يقولون: أبو ذؤيب أحسن أهل المدينة، فدعا به، فقال: «أنت لعمري»، فأخرج عن المدينة فقال: «إن كنت تخرجني فإلى البصرة حيث أخرجت يا عمر نصر بن حجاج»، وكان نصر

هذا يتغنى به بعض النساء ليلًا، فسأل عنه ونفاه من المدينة حتى لا يفسد النساء على الرجال، وجعدة السلمي كان يخرج وراء بعض النساء إلى البقيع ويتحدث إليهن، فكتب بعض الرجال إلى عمر يشكون ذلك فأخرجه، وقد يصل الأمر ببعض المخنثين إلى أن يفقد رجولته حتى يؤتى، وقد ينتهي الأمر بالمسترجلة إلى أن تتعاطى السحاق بغيرها من النساء، ومن فعل ذلك من الرجال كان حكمه حكم الزاني وللمرأة من الذم والعقوبة القاسية، ما يكون عبرةً وعظة وردعًا وزجرًا.

وإنما أمر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بإخراج هؤلاء المخنثين من المدينة قطعًا لدابر الرذيلة ووَأْدًا لها في مهدها، وحتى لا تؤدي بصاحبها إلى ما هو أفحش وأشنع، وحتى لا يراه غيره ولا يسمع به، فلا يكون الأثر المذموم، وكذلك إيصادًا لباب الشهوة والفتنة، قال المهلب: «إنما حجبه عن الدخول على النساء، لما سمعه يصف المرأة بهذه الصفة التي تهيج قلوب الرجال، فمنعه لئلا يصف الأزواج للناس فيسقط معنى الحجاب» اهـ. ويستفاد من الحديث أنه يجب حجب النساء عمن يفطن لمحاسنهن، وأنه يجب إبعاد من يستراب به في أمر من الأمور لا سيما في أمر النساء، وفي الحديث تعزير من يتشبه بالنساء بالإخراج من البيوت والنفي، إذا تعين ذلك طريقًا لردعه، وظاهر الأمر وجوب ذلك، وقد اتفق العلماء على أن تشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء من قاصد مختار، حرام.

وظاهر الحديث أن المرأة المسترجلة المتشبهة تُنفى كذلك، وإنما يكون ذلك إذا كان النفي إلى مكان أمين، وكان معها محرم لها وحيث تؤمن الفتنة بها، فإن لم يتيسر ذلك فلتعزر، ولتحبس، ولتمنع من المخالطة تأديبًا وزجرًا حتى تتوب إلى ربها. والمعروف أن عمر أخرج رجالًا، ولم يذكر العلماء من أخرجهن عمر من النساء، وأكثر الروايات «وأخرج عمر فلانًا» بالتذكير، ورواية أبي ذر للبخاري «فلانةً» بالتأنيث ووقع ذلك أيضًا في شرح ابن بطال، وأما رواية الباقين فبالتذكير وكذا عند الإمام أحمد[١٢] والاعتماد على رواية التذكير ونسخ البخاري التي في أيدينا بالتذكير، والله أعلم.

* * *

الهوامش:

(١) البخاري ج٤ ص٢٦.
(٢) المستغفري.
(٣) مسلم ج١٦ ص١٥٢.
(٤) المرجع السابق.
(٥) البخاري ج ٤ ص٢٦.
(٦) شرح مسلم ج١٤ ص١٦٤.
(٧) أبو داود ج٢ ص٣٨١.
(٨) (١) البخاري ج٤ ص٢٦.
(٩) أبو داود ج٢ ص٨٥٠.
(١٠) البخاري ج٤ ص٢٦.
(١١) مسلم ج١٤ ص١٦٤.
(١٢) انظر فتح الباري ج١٠ ص٣٥٧.

الحســـد

بقلم: الدكتور/ بدر عبد الحميد هميسه

الحسد داء عضال، وشر وبيل يضر بصاحبه قبل أن يضر بالآخرين، وأول خطيئة كانت في الوجود هي خطيئة الحسد حيث حسد إبليس آدم، وأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية، وكان سببًا في طرده من رحمة الله تعالى، كما أن أول جريمة حدثت على ظهر الأرض كانت بسبب الحسد حينما حسد قابيل أخاه هابيل، ولقد نهى الإسلام عن الحسد وحذر منه لما له من خطر على الدين، قال تعالى ذمًا لأهل الكفر والضلال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة:١٠٩].

والمسلم يستعيذ بالله من شر الحسد، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق:٥].

وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الناس لا يزال فيهم الخير والصلاح ما لم ينتشر بينهم الحسد والبغضاء.

عَنْ ضَمْرَةَ بن ثَعْلَبَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا». أخرجه الطبراني (٣٠٩/٨، رقم ٨١٥٧). قال الهيثمي (٧٨/٨): رجاله ثقات، السلسلة الصحيحة ١٧٢/٩.

والحاسد يضر نفسه قبل أن يضر غيره فيظل في عذاب دائم وفي ألم مستمر وفي حزن متواصل، وهو صاحب قلب ميت ونفس خبيثة، وقديمًا قيل: «لا راحة مع الحسد».

ولقد انتشر هذا الداء بين الناس اليوم، ولا يكاد يخلو جسد من حسد؛ بل وأصبح الناس – ولا حول ولا قوة إلا بالله – لا يحسدون الأحياء فقط، بل وصل الحسد إلى الأموات، فيقولون كان مشهد فلان (أي جنازته) كيت وكيت، وصلى عليه فلان وفلان، وترك كذا وكذا، قال الشاعر:

هُمْ يحسدوني على موتي فوا أسفًا
حتى على الموتِ لا أخلو مِنَ الحسدِ

وهذا كله من ضعف الإيمان، ومن عدم الرضا واليقين بما وهب الرحمن المنان.

١- تعريف الحسد:

قال ابن الأثير: الحسد: هو أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه[1].

وقـال ابـن حجـر رحمـه الله: الحسد تمني زوال النعمة عن مستحق لها[٢].

وقال النووي رحمه الله: الحسد هو تمني زوال النعمـة عـن صـاحبها، سـواء كانـت نعمـة ديـن أو دنيا[٣].

ولقـد وردت كلمـة الحسد في القـرآن الكـريم بمشتقاتها المختلفة خمس مرات.

وقال ابن القيم – رحمه الله–: أصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، وليس هـو شـيئًا اكتـسبه مـن غيرهـا؛ بـل هـو مـن خبثهـا وشرها[٤].

وقـال صـاحب الظلال في تعريف الحسد: هـو انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها، وسواء اتبع هذا الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شرًا يمكن أن يعقب هذا الانفعال[٥]. أهـ

حقيقة الحسد والحاسد:

وحقيقة الحسد: بغض نعمة الله على العبد وإن لم يتمنَّ زوالها، قال الحسن رحمه الله: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، نغص دائم وحزن لازم.

والحـسد كـما هـو حقيقـة شرعيـة فهـو حقيقـة علميـة، فـإن الله –تبـارك وتعـالى– مـا ذكـر شـيئًا في كتابه الكريم إلا وله شأن وحكم وحكمة، فالحسد جـاء ذكـره في القـرآن وفي الـسنة النبويـة الـشريفة، وذلك يعني أنه طبيعة قائمة في نفوس الناس الذين لا يتقون الله فيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فـضله، وهـذا مـن حيـث الاعتقـاد لا مـراء فيـه ولا جـدال عليـه، ولكـن تُـرى هـل لـه مـن القطعيـات العلمية اليقينية ما تؤكد مصداقية حدوثه وإنه حق.

قـال ابــن القـيم (كـما في التفـسير القـيم ص٥٧٣، والطب النبوي، ص٢٣١): «أبطلت طائفة ممن قل نـصيبهم مـن الـسمع والعقـل أمـر العـين، وقـالوا: إنـما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالـسمع والعقـل، ومـن أغلظهـم حجابًـا وأكـثفهم طباعًـا وأبعـدهم عـن معرفـة الأرواح والنفـوس وأفعالهـا وتأثيراتهـا، وعقـلاء الأمـم عـلى اخـتلاف مللهـم ونحلهـم لا تـدفع أمـر العـين ولا تنكـره، وإن اختلفوا في سببه ووجهة تأثير العين، ثـم قال: «وقد دلّ القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود»أهـ

مما لا ريب فيه ولا يختلف عليه إنس ولا جان أن للإنـسان روحًـا تحكمـه وتهـيمن عليـه، وهـي سر حياتـه ونـبض فـؤاده، وهـذه الـروح كالملائكـة والجـن لا تُرى وإن كانت مثلهم حقيقة لا خيالًا، وواقعًا لا محـالًا، وهـذه الـروح تتـأثر بروحانيـات وأمـور شـتى ينتج عن ذلك تقلبات وتغيرات في الإنسان، فالحزن

مـثلًا شيء وجـداني قـد يـصل بـه الأمـر أن يـدمر الإنسان إن استمر ودام، وكذلك السرور والفرح قد يؤثران على الإنسان بما يبهج حياته ويدعم صحته ويطيـل في عمـره بـإذن الله ويحـرك فيـه طاقـات وطاقات.

هكذا إن تسلط شيطان منطلق من عين حاسد يريد نشر الشر بين الناس ويتمنى زوال ما أنعم الله عليهم، فـإن ذلـك الخفـي الـشرير إبلـيس يحـدث اضـطرابًا في صــاحب النعمــة، أو في ذات النعمــة فيُخرِّبها ويهلكها بقوة خفية تحركت باديء ذي بدء من هذا الحاسد المطيع للشيطان.

قــال الــدكتور فيكتــور يوشــيه: «إن الحـسد والغـيرة والحقـد أقطـاب ثلاثـة لـشيء واحـد، وإنهـا لآفـات تنـتج سـمومًا تـضر بالـصحة وتقـضي عـلى جانب كبير من الطاقة والحيوية اللازمتين للتفكير والعمل»(٦).

قال ابن القيم -رحمه الله-: فلله كم من قتيل، وكم من سليب، وكم من معافٍ، عاد مضنيًا على فراشه؟

يقـول طبيبـه: لا أعلـم داءه مـا هـو؟ فـصدق، لـيس هـذا الـداء مـن علـم الطبـائع، فهـذا مـن علـم الأرواح وصــفاتها وكيفياتهــا ومعرفــة تأثيراتهــا في الأجسام والطبـائع وانفعـال الأجـسام عنهـا، وهـذا علم لا يعرفه إلا خواص.

وقال الجاحظ عن حقيقة الحاسد: «هو الكلب الكلِـب، والنمـر الحـرِب، والـسم القـشِب، والفحـل القطِم، والسيل العرم، إن مَلَكَ قتل وسبا، وإن مُلِك عـصى وبغـى، حياتـك موتـه وثبـوره، وموتـك عرسـه وسروره، يـصدق عليـك كـل شـاهد زور، ويكـذب فيـك كـل عـدل مـرضيّ، لا يحـب مـن النـاس إلا مـن يبغضك، ولا يبغض إلا من يحبك...، إنك غير سالم منه وإن رفعت القذى عن لحيته، وسويت عليه ثوبه فـوق منكبـه، ولبـست ثـوب الاسـتكانة عنـد رؤيتـه، واغتفـرت لـه الزلـة بعـد زلتـه، واستحـسنت كـل مـا يقـبح مـن شـيمه، وصـدقته عـلى كذبـه، وأعنتـه عـلى فجرته، فما هذا العناء؟ وما هذا الداء العياء؟...، إنه لا يأتيــك ولكنــه ينـاديــك، ولا يحاكمــك ولكنــه يوازنـك، أحسن ما تكون عنده حالًا: أقل ما تزيد مـالًا، وأكثـر مـا تكـون عيـالًا، وأعظـم مـا تكـون ضلالًا. وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدًا وأبعد ما تكون من الناس حمدًا، فإذا كان الأمر عـلى هـذا فمجـاورة الأمـوات، ومخالطـة الزمنـى، والاجتنــان بالجــدران، ومــص المــصران، وأكــل القــردان، أهــون مــن معــاشرة مثلــه، والاتــصال بحبله»(٧).

قال الشافعي رحمه الله تعالى:

وداريت كل الناس لكن حاسدي
مداراته عزَّت وعزَّ مناها

وكيف يداري المرء حاسد نعمةٍ

إذا كان لا يرضيه إلا زوالها؟

الفرق بين الحسد والعين:

من أهم الفروق التي ذكرها أهل العلم كابن الجوزي وابن القيم وابن حجر والنووي وغيرهم - رحمهم الله جميعًا -.

١- الحاسد أعم من العائن، فالعائن حاسد خاص، فكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنًا، ولذلك جاء ذكر الاستعاذة في سورة الفلق من الحاسد، فإذا استعاذ المسلم من شر الحاسد دخل فيه العائن، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته[٨].

٢- الحسد يتأتى عن الحقد والبغض وتمني زوال النعمة، أما العين فيكون سببها في الغالب الإعجاب والاستعظام والاستحسان.

٣- الحسد والعين يشتركان في الأثر حيث يسببان ضررًا للمعين والمحسود، ويختلفان في المصدر، فمصدر الحسد تحرُّق القلب واستكثار النعمة على المحسود، وتمني زوالها عنه، أما العائن فمصدره انقداح نظرة العين؛ لذا فقد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وربما أصابت عينه نفسه، فرؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين[٩].

٤- الحاسد يمكن أن يحسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه، أو يحصل عند غيبة المحسود وحضوره بينما العائن لا يعين إلا الموجود بالفعل، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة القلم:٥١).

٥- لا يحسد الإنسان نفسه ولا ماله، ولكنه قد يعينهما.

٦- لا يقع الحسد إلا من نفس خبيثة حاقدة، ولكن العين قد تقع من رجل صالح من جهة إعجابه بالشيء دون إرادة منه إلى زواله، كما حدث من عامر بن ربيعة عندما أصاب سهل بن حنيف بعين برغم أن عامرًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- من السابقين إلى الإسلام؛ بل ومن أهل بدر.

٢- أسباب الحسد:

أول من وقع في قلبه الحسد إبليس – عليه لعنة الله – فقد حسد آدم – عليه السلام – لأن الله اجتباه بالخلافة، وأمر الملائكة أن تسجد له، عند ذلك اضطرمت واشتعلت نار الحقد والحسد في أحشاء إبليس فتكبر عن أمر الله كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدم فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٣٤).

وكانت النتيجة أن طرده الله من الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ* قَالَ

فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٢-١٧).

وقول إبليس – لعنه الله–: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي أنه توعد بأن يجعلهم من الحاسدين.

قيل لما ركب نوح السفينة، وحمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمر، فرأى في السفينة شيخًا لم يعرفه، فقال له نوح: «ما أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك، فتكون قلوبهم معي، وأبدانهم معك، قال نوح: «اخرج منها يا عدو الله فإنك رجيم، «وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين»، فقال إبليس: خمس أهلك بهن الناس، وسأحدثك منهن بثلاث، ولا أحدثك بالثنتين، فأوحى الله إلى نوح أنه لا حاجة بك إلى الثلاث، مره يحدثك بالثنتين، قال: فهما أهلك للناس، وهما لا يكذبان، هما اللتان لا يخلفاني: الحسد، وبالحسد لعنت، وجعلت شيطانًا رجيمًا، والحرص، أتيح آدم الجنة كلها، فأصبت حاجتي منه بالحرص[١٠].

وكل ذي نعمة محسود قال أبو تمام الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ
طويت أتاح لها لسان حسودِ

لولا اشتعال النار في جزل الغضا
ما كان يعرف طيب ريح العودِ

لولا التخوف للعواقب لم يزل
للحاسد النعمى على المحسودِ

وللحسد أسباب كثيرة منها:

(١) عدم الرضا والقناعة بما قسمه الله تعالى.

فالحسود عدو النعمة، غضبان على القدر. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله[١١].

فإن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو: ردّه لقدر الله في خلق الله، وثاني ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه؛ فقلبه يحترق حقدًا. ولذلك قالوا: الحسد هو الذنب أو الجريمة التي تسبقها عقوبتها؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة؛ لأن الحقد يحرق لبه، وربما قال قائل: وما ذنب المحسود؟.. ونقول: إن الله جعل في بعض خلقه داء يصيب الناس، والحسد يصيبهم في نعمهم وفي عافيتهم. وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به؟ هذه مثل تلك. فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمي نفسه به، وليس له أن يستعمله في باطل[١٢].

قال الشاعر:

حَسَدُوا الفتى إذْ لم ينالوا سعيَهُ

فالناسُ أعداءٌ لهُ وخصومُ

كضرائرِ الحسناءِ قُلْن لوجهِهَا

حسدًا ومقتًا إنهُ لذميمُ

(٢) الكبر والعجب بالنفس:

فإذا كان الحاسد معجبًا بنفسه رأى أنه أحق بالنعم من غيره، وأن غيره لا يستحق هذه النعم؛ لأنه – فيما يخيل له – أذكر وأعقل منه، وينسى أن الأرزاق أقدار من الله وأسباب، وليست فهمًا ولا حجا.

قال أبو تمام:

يَنَالُ الْفَتَى مِنْ عَيْشِهِ وَهُوَ جَاهِلُ

وَيُكْدِي الْفَتَى مِنْ دَهْرِهِ وَهُوَ عَالِمُ

وَلَوْ كَانَتْ الأرزاق تَجْرِي عَلَى الْحِجَا

هَلَكْنَ إِذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ

(٣) خبث النفس:

فبعض النفوس نعوذ بالله منها لا تتمنى لأحد خيرًا أبدًا؛ بل ربما تتمنى الشر لمن أحسن إليها لخبث دفين فيها. ولقد أخبرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أفضل الناس ما كان قلبه طاهرا ونفسه طيبة ؛ لا يحقد ولا يحسد. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لاَ إِثْمَ فِيهِ، وَلاَ بَغْيَ، وَلاَ غِلَّ، وَلاَ حَسَدَ[١٣].

وذكرت كتب السنة هذه القصة الرائعة في فضل سلامة الصدر ونبذ التحاسد والتباغض، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مَاءً مِنْ وَضُوئِهِ، مُعَلِّقٌ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الأُولَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ: إِنِّي لاَحَيْتُ أَبِي، فَأَقْسَمْتُ أَنْ لاَ أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَحِلَّ يَمِينِي فَعَلْتَ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ لَيْلَةً، أَوْ ثَلاَثَ لَيَالٍ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ، فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لاَ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلاَّ خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلاَثُ لَيَالٍ كِدْتُ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِي غَضَبٌ وَلاَ هَجْرَةٌ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لك ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فِي ثَلاَثِ

مَجَالِسَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعْتَ أَنْتَ تِلْكَ الثَّلاَثَ مَرَّاتٍ، فَأَرَدْتُ آوِي إِلَيْكَ، فَأَنْظُرَ عَمَلَكَ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي غِلًّا لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ أَحْسُدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لاَ نُطِيقُ[١٤].

(٤) تفوق المحسود بفضل يعجز عنه الحاسد:

كالعلمَ أو المال، أو الأدب، أو الجاه، أو الوجاهة... إلخ.

قال معن بن زائدة:

إني حُسِدتُّ فزاد الله في حسدي

لا عاش من عاش يومًا غير محسودِ

ما يحسد المرء إلا من فضائله

بالعلم والظُّرف أو بالبأس والجودِ

(٥) حب الرياسة:

فإذا كانت النفس مريضة بحب التصدر والرياسة فإنها تحسد كل من تشعر أنه يزاحمها ويضايقها في الوصول إلى المناصب، ومن ثم تسعى لإسقاط الطرف الآخر لتتفرد هي بالرياسة، وهذا هو الذي دعا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لعداوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان يتأهّب ليكون رئيسًا على المدينة، فلما جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة تركه الناس، وأقبلوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتفوا حوله فحسده عبد الله بن أبي على ذلك ثم بذل جهده في محاربة الإسلام.

وكما حكى القرآن عن قوم فرعون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون:٤٥-٤٧).

وكذلك كان الكِبْرُ سببًا في حسد كفار مكة للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حيث قالوا: يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي.

وحكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

(٦) التنافس في عمل واحد:

فهذا مما يسبب الحسد في كثير من الأحوال، حيث تجد التاجر يحسد التاجر، والمزارع يحسد المزارع، والعالم يحسد العالم، والواعظ يحسد الواعظ وقلَّ أن تجد عالمًا يحسد طبيبًا، أو مهندسًا يحسد مزارعًا إلا لأغراض أخرى. كان ابن سيرين -رحمه الله- يقول: «ما حسدت أحدا أبدًا على شيء من أمور الدنيا، ذلك أنه مهما أُوتِي من الدنيا فلو كان مصيره الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة

في الجنة؟ وإن كان مصيره إلى النار فكيف أحسده على الدنيا وهو صائر إلى النار؟.

(٧) الخوف من فوت المقاصد:

فإذا كان الحاسد مشتهرًا بأمر، حتى صار الناس يتزاحمون عليه بسببه، وصار اسمه مذكورًا على جميع الألسن، واشتهر أمره، ثم برز من يساويه أو يتفوق عليه في ذلك الأمر تراه يحسده ويتمنى أن ينتقل إلى مكان آخر، أو أن ينجفل الناس عنه، خوفًا من فوات مقصده من الشهرة والمال والثناء وغير ذلك كما حدث مع إخوة يوسف في تنازعهم على حب أبيهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ (يوسف:٨).

وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ
طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرفِ العود

(٨) تسبب المحسود نفسه في حسد الناس له:

وذلك عن طريق المبالغة في إظهار نعم الله تعالى عليه كالمبالغة في إظهار نعمة المال أو الصحة أو الذكاء أو الجمال أو قوة الذاكرة...إلخ.

ومن هنا فقد روي من حديث معاذ بن جبل و علي بن أبي طالب و عبد الله بن عباس و أبي هريرة و أبي بردة مرسلًا «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»[١٥].

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها ولا يكشف جملتها، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها فإن العين حق، وإني تفقدت النعم فرأيت إظهارها حلوًا عند النفس، إلا أنها إن أظهرت لوديد لم يؤمن تشعث باطنه بالغيظ، وإن أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد، إلا أنني رأيت شر الحسود كاللازم، فإنه في حال البلاء يتشفى، وفي حال النعم يصيب بالعين»[١٦].

قال الشاعر:

إني لأرحم حاسديَّ لفرط ما
ضمت صدورهمُ من الأوغارِ

نظروا صنيع الله بي فعيونهم
في جنة وقلوبهم في نارِ

وقال الجاحظ: «أما أنا فحقًا أقول: لو ملكتُ عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به بإلزام الهموم قلبه وتسليطها عليه، فزاده الله حسدًا، وأقامه عليه أبدًا»[١٧].

وقال الشافعي:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ
أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ

إِنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ
لِأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ

وَأُظْهِرُ الْبِشْرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ
كَأَنَّمَا قَدْ حَشَى قَلْبِي مَحَبَّاتِ
النَّاسُ دَاءٌ دَوَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمْ
وَفِي اعْتِزَالِهِمْ قَطْعُ الْمَوَدَّاتِ

أنواع الحسد:

الحسد نوعان: حسد مذموم، وحسد محمود.

أولًا: الحسد المذموم:

المقصود بالحسد المذموم هو أن يرى الإنسان نعمة على إنسان آخر فيكره ذلك ويتمنى زوالها عنه وانتقالها إليه. وهذا النوع من الحسد ذَمَّه الله وحَرَّمه في كتابه وحذرنا منه النبي ﷺ في سنته المطهرة.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة:١٠٩).

قال ابن كثير رحمه الله: يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك الكفار من أهل الكتاب، ويُعْلِمُهم بعداوتهم لهم في الظاهر والباطن، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين[١٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء:٥٤).

قال القرطبي: قوله تعالى: أم يحسدون يعني: اليهود، وقوله تعالى: الناس يعني النبي ﷺ خاصة. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: حسدوه على النبوة، وأصحابه على الإيمان به[١٩].

وللحسد المذموم مراتب منها:

المرتبة الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن الغير، وأن تنتقل إليه، ولذا يسعى بكافة السُّبُل المحرَّمة إلى الإساءة إليه ليحصل على مقصوده، كأن يحصل على داره، أو يجعله يطلِّق امرأته ليتزوجها، أو يكون صاحب منصب، فيحب أن يحصل عليه بدلًا من ذلك الغير. وهذه المرتبة هي الغالبة بين الحُساد.

المرتبة الثانية: أن يحب الإنسان زوال النِعْمة عن الغير، وإن كانت هذه النعمة لا تنتقل إليه، وهذه المرتبة في غاية الخُبْث ولكنها دون المرتبة الأولى.

المرتبة الثالثة: أن لا يحب الإنسان نفس هذه النعمة لنفسه، ولكنه يشتهي أن يكون لديه مثلها، فإن عجز عن الحصول على مثلها، أحب زوال هذه النعمة عن الغير كي لا يظهر التفاوت بينهما[٢٠].

يروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: إن إبليس قال لنوح، اثنتان أهلك بهما بنى آدم، الحسد وبالحسد لُعِنْتُ وجُعِلْت شيطانًا رجيمًا، والحرص وقد أُبيح لآدم الجنة كلها، فأصبت حاجتي منه بالحرص (أخرجه ابن أبي الدنيا).

ويقول ابن القيم كما في التفسير القيم ص٥٨٤: للحسد ثلاث مراتب:

إحداها: بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها.

والثانية: تمني استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة؛ بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مُقَدّر، والأول حسد على شيء محقق. وكلاهما حاسد، وعدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسي؛ فإن الناس لا يُسوِّدون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسوِّدونه باختيارهم أبدًا إلا قهرًا، يعدونه من البلاء و المصائب التي ابتلاها الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والثالثة: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه؛ بل هذا قريب من المنافسة. وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:٢٦)، وفي الصحيح عن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا وسلطه على هَلَكَته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها الناس» (متفق عليه).

قال عروة بن أذينة:

لا يبعد الله حسادي وزادهم
حتى يموتوا بداء غير مكنون

إني رأيتهم في كل منزلةٍ
أجل فقدًا من اللائي أحبوني

ثانيا: الحسد المحمود:

المقصود بالحسد المحمود هو أن يرى الإنسان نعمة على غيره، فيتمنى أن يكون له مثلها دون أن يكرهها أو يتمنى زوالها عن ذلك الغير[٢١].

وهذا الذي قال عنه النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- كما عند البخاري: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل أتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل»[٢٢].

ويسمى هذا النوع من الحسد المحمود بالغبطة أو المنافسة، ومن المعلوم أن المنافسة في عمل الخيرات وطلب الآخرة أمر حثنا عليه الله في كتابه والنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- في سنته المطهرة، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَ اللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:٢١)، وقال سبحانه:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:٢٦)، روى أبو داود عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: أمرنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وأتي أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا»[٢٣].

يقول عمر - رضي الله عنه - هذا الكلام وليس في قلبه شيء؛ لأن المؤمن التقى النقي هو الذي لا يحسد أحدًا أبدًا على ما أعطاه ربنا المعبود في هذا الوجود، فالمؤمن يغبط، ومَنْ في إيمانه خلل يحسد.

وقد أثنى الله – عز وجل – على الأنصار؛ لأنهم لا يحسدون أحدًا على نعمة أنعم الله بها عليه فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩)

ولقد وصف الله تعالى هؤلاء الناس بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر:١٠).

* * *

الهوامش:

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣٨٣/١).
(٢) فتح الباري (٤٨١/١٠).
(٣) رياض الصالحين (ص: ٤٦٦).
(٤) التفسير القيم، ص ٥٨٣.
(٥) تفسير الظلال (٤٠٠٨/٦).
(٦) القرآن والعلم للدكتور/عبد الرزاق نوفل، ص٢٨.
(٧) رسالة الحاسد والمحسود (ص: ٢٦ – ٢٩).
(٨) التفسير القيم:٧٥٩.
(٩) التفسير القيم:٥٧٧، وبدائع الفوائد.٢٣١/٢.
(١٠) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ٣٨/٨.
(١١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٠٩/١.
(١٢) تفسير الشعراوي ٣٣٥/٥٤.
(١٣) أخرجه ابن ماجة (٤٢١٦) السلسلة الصحيحة ٢ / ٦٦٩.
(١٤) أخرجه أحمد ١٦٦/٣(١٢٧٢٧) وقال محققه شعيب الأرناؤط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه الترمذي (٣٦٩٤) و«النَّسائي»، في «عمل اليوم والليلة» ٨٦٣، والطبراني والحاكم في المستدرك (٧٣/٣) وصححه ووافقه الذهبي.
(١٥) الطبراني (٩٤/٢٠، رقم ١٨٣)، والبيهقى في شعب الإيمان (٢٧٧/٥، رقم ٦٦٥٥)، الألباني:(صحيح) انظر حديث رقم: ٩٤٣ في صحيح الجامع.
(١٦) صيد الخاطر (ص: ١٧٧).
(١٧) صيد الخاطر (ص: ٢١).
(١٨) تفسير ابن كثير ١٨/٢.
(١٩) تفسير القرطبي ٢٥٢/٥.
(٢٠) الإحياء للغزالي ٢٩٨/٣.
(٢١) النهاية لابن الأثير ٣٨٣/١.
(٢٢) البخاري حديث ٥٠٢٦.
(٢٣) صحيح أبي داود للألباني حديث ١٤٧٢.

حديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»، في ضوء قاعدة: «الأحكام تتعلق بالمعاني لا بالألفاظ»

بقلم: **الأستاذ عبد الحكيم خلفي**(*)

لقد أورد القرطبي في جامعه هذه القاعدة بهذه الصيغة أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، بعد أن تحدث عن حكم تزوج الرجل من بنت زوجته إن ماتت عنه زوجته أو طلقها قبل أن يدخل بها، والاختلاف الحاصل في معنى الدخول الذي يقع به تحريم الربائب، فقال: «والدليل على أن بالنظر يقع التحريم أن فيه نوع استمتاع فجرى مجرى النكاح، إذ الأحكام تتعلق بالمعاني لا بالألفاظ»[١].

نجد هذه القاعدة أيضًا في باب العقود، حيث العبرة فيها للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني، وهذا؛ لأن الإنسان يعبر في كثير من الأحيان عما يريد بألفاظ توحي بغير المراد، لذا كان المراد هو المعتبر دون اللفظ، ويفهم من هذا عدم النظر للألفاظ المستعملة من لدن العاقدين حين العقد؛ بل ينظر إلى مرادها من ذلك الكلام المتلفظ به عند العقد، وهذا؛ لأن المعنى هو المقصود الحقيقي لا اللفظ[٢]، لذا لا ينظر إلى اختلاف العبارة ولكن ينظر إلى المقصود من العبارة، وقد جاء في موسوعة القواعد الفقهية للبورنو أن «الحكم يبنى على المقصود، ولا ينظر إلى اختلاف العبارة بعد اتحاد المقصود»[٣]، لذا فإننا نجد الفقهاء قد ذهبوا إلى حمل كلام كل إنسان على لغته وعلى عرفه حتى وإن خالفت لغة الشرع وعرفه[٤]، فالألفاظ مجرد أوعية للمعاني.

حديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»:

قال البخاري في صحيحه: حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان بن عيينة: حدثنا صالح بن حيٍّ أبو حسن قال: سمعت الشعبي يقول: حدثني أبوبردة، أنه سمع أباه، عن النبي -ﷺ- قال: «ثلاثةٌ يُؤتون أجرهم مرَّتَين: الرجلُ تكون له الأمة فيُعلِّمها، فيُحسن تعليمها، ويؤدِّبها فيُحسن أدبها، ثم يُعتقها، فيتزوجها، فله أجران، ومؤمنُ أهل الكتاب الذي كان مؤمنًا، ثم آمن بالنبي -ﷺ-، فله أجران، والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيِّده» ثم قال الشعبي: وأعطيتكها بغير شيء، وقد

(*) أستاذ وباحث في الدراسات الإسلامية والتراث العربي الإسلامي، المغرب.
البريد الإلكتروني: abdelhakimkhalafi@gmail.com
الهاتف: ٢١٢+٦٧١٠٢٧١٢٩.

كان الرجل يرحل في أهون منها إلى المدينة[٥].

ونجد طرقًا أخرى للحديث تذكر الأصناف الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين بزيادات في الألفاظ وتقديم وتأخير للأصناف المذكورة[٦]، كما نجد بعض الأحاديث ذكرت من الأصناف العبد المملوك فقط[٧]، وأخرى ذكرت المحسن إلى أمته فقط[٨]، وأخرى تجمع بين العبد الناصح لسيده والمحسن لأمته دون إيراد من آمن من أهل الكتاب[٩].

سنحاول الإجابة عنه في هذه السطور هو: هل نيل الأجر مرتين متوقف فقط على الأصناف الثلاثة المذكورة في الحديث؟ أم أن الدائرة أوسع وأشمل من ذلك؟ وهل العدد: «ثلاثة»، وألفاظ: «الأمة»، و «أهل الكتاب»، و «العبد»، يُتوقف عندها؟وما هو دور قاعدة: الأحكام تتعلق بالمعاني لا بالألفاظ، في الإجابة عن هذه الأسئلة؟

أولًا: قوله -ﷺ-: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»:

ظاهر الحديث يوحي أن الأصناف المذكورة محصورة في ثلاثة، ولا تتعداها إلى غيرها، لذا فإننا نجد ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- ذهب إلى عدم التوقف عند العدد «ثلاثة»، وقد قال بعد ذكره لمجموعة من أطراف الأحاديث التي يجازى فيها المرء مرتين - كالتي تتصدق على قريبها، والحاكم إذا أصاب، ومن سن سنة حسنة، ومن دعا إلى هدى، ومن دل على خير، وغيرهم- «كل هذا دال على أن لا مفهوم للعدد المذكور في حديث أبي موسى[١٠]، وفيه دليل على مزيد فضل من أعتق أمته ثم تزوجها سواء أعتقها ابتداءً لله، أو لسبب[١١].

والمفهوم من قول ابن حجر أن كل من أحسن في معناهم من غير الثلاثة المذكورين في الحديث؛ فإنهم يؤتون الأجر مرتين، وهو ما يؤكده المهلب بقوله: «جاء النص في هؤلاء الثلاثة لينبه به على سائر من أحسن في معنيين في أي فعل كان من أفعال البر»[١٢] وقد قال -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- فيمن تصدق بماله على الأقارب: «له أجران؛ أجر القرابة والصدقة»[١٣]، أي أن من تصدق على قرابته فله أجران أجر يأخذه على صدقته، وأجر يأخذه على صلته للرحم.

ثانيًا: قول الرسول -ﷺ-: «الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران»:

هذا هو الصنف الأول من الأصناف المذكورة في الحديث، فالذي تكون له أمة يقوم على رعايتها وتربيتها وتأديبها وتعليمها ثم يعتقها ويتزوجها ينال الأجر مرتين على هذا العمل، قال القرطبي: «قال العلماء: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبًا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين»[١٤] ثم قال: «ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته

أمته وأدبها، فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أمر فيها فأجر كل واحد منهما أجرين، ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور»[15].

هنا نجد القرطبي لم يقتصر على ذكر الفضل الذي يؤتى للمحسن إلى أمته، ولم يتوقف عند لفظة «له أجران»؛ بل إنه قال بمضاعفة الأجر إلى أجور، والحسنة إلى حسنات، إذ الأحكام تتعلق بالمعاني لا بالألفاظ.

ويمكن القول: إن لفظة «أمة» المذكورة في الحديث لا يمكن أن نتوقف عندها ونحصر معناها في الجارية المملوكة فقط، خاصة إذا اعتبرنا أن كل النساء إماء الله، ومن هذا المنطلق فإن أي رجل علم أمته أو كفيلته أو ابنته أو أخته فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها، وقام على شؤونها، وجلب ما يُصلح دينها ودنياها، ثم تزوجها أو زوجها فله أجران، والأجر يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها.

ثالثًا: قوله ﷺ: «ومؤمن من أهل الكتاب الذي كان مؤمنا، ثم آمن بالنبي -ﷺ- فله أجران»:

إن الكتابي الذي آمن بنبيه ونبينا -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يؤتى الأجر مرتين، وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

هذا الصنف من أهل الكتاب الذي يخبرنا الله -سبحانه وتعالى- عنه هم الذين آمنوا بالقرآن وصدقوا بما أنزل على محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد إيمانهم بنبيهم واتباعهم له، يكون أجرهم مضاعفًا.

جاء في سبب نزول هذه الآية أنه «خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم رفاعة، يعني أباه[16] إلى النبي -ﷺ- فآمنوا فأوذوا فنزلت: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمدا -ﷺ- فآمنوا، منهم: سلمان، وعبد الله بن سلام[17].

قال ابن كثير في تفسيره: «قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قرأ عليهم ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى ختمها فجعلوا يبكون، وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(٥٣)﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا

صَبَرُوا﴾ ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على اتباع الحق فإنَّ تجشمَ مثل هذا شديد على النفوس»[١٨]، وفي صفوة التفاسير: «﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعطون ثوابهم مضاعفًا مرةً على إيمانهم بكتابهم، ومرةً على إيمانهم بالقرآن»[١٩].

لقد ذكر ابن حجر -رحمه الله- بعض الفوائد من هذه الآية، فقال في الفائدة الأولى: إنها نزلت في عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، فالأول يهودي فأسلم، والثاني نصراني فأسلم، وقال في الفائدة الثانية: إن الكتابي الذي يضاعف أجره هو الذي كان على الحق في شرعه عقدًا وفعلًا إلى أن آمن بالرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، فيكون مأجورًا لاتباعه الحق الأول ومأجورًا لاتباعه الحق الثاني، ويشكل عليه أن النبي -ﷺ- كتب إلى هرقل «أسلِم تسلَم يؤتك الله أجرك مرتين» وهرقل قد دخل إلى النصرانية بعد التبديل، أما الفائدة الثالثة: فهي عدم ترجيحه لما قال به أبوعبد الملك البوني وغيره: إن الحديث لا يتناول اليهود البتة، وكذا قول الداودي ومن تبعه في أنه يحتمل تناوله لجميع الأمم فيما فعلوه من خير، وقد احتج ابن حجر بأن الحديث مقيد بأهل الكتاب؛ لذا فإنه لا يتناول غيرهم إلا بقياس الخير على الإيمان، وأيضًا فالنكتة في قوله: (آمن بنبيه)، فسبب الأجرين الإيمان بالنبيَّيْن، والكفار ليسوا كذلك، أما الفائدة الرابعة: فإن حكم المرأة الكتابية حكم الرجل كما هو مطرد في جل الأحكام، حيث يدخلن مع الرجال إلا ما خصه الدليل[٢٠]، ولا معنى للفظ «رجل» فالمعنى يتناول الجنسين.

وفي كتاب رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- الذي أرسله إلى هرقل والذي أشار إليه ابن حجر نجد أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- بين نيل الأجر مرتين بإسلامه، ونيل الإثم من يكفر من قومه إن كفر، قال -ﷺ-: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تسلَم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين..»[٢١]، والأريسيون: الفلاحون، وفي رواية: «فإن إثم الأكارين عليك»[٢٢]، فكما الأجر يكون مضاعفًا بالإيمان برسالة محمد -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، فكذلك يكون العقاب والإثم مضاعفًا بالكفر بهذه الرسالة.

وفي مسألة إعطائه الأجر مرتين فقد احتمل ابن حجر احتمالين: إما لكونه كان مؤمنًا بنبيه ثم آمن بمحمد -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، وإما أن يكون هذا التضعيف من جهة إسلامه، وأن إسلامه سبب لدخول أتباعه في الإسلام[٢٣].

و ما قاله ابن حجر عن تضعيف الأجر بسبب دخوله ودخول قومه في الإسلام، يمكن أن يقال أيضًا عن تضعيف الإثم بسبب كفره وكفر قومه؛

لأنه كان سببًا في منعهم عن الهداية بعد أن جاءتهم، وبإضلاله لقومه يضاعف الإثم، وهذا ما ذهب إليه النووي عندما قال: «البيان الواضح أن من كان سببًا لضلالة أو سبب منع من الهداية كان آثمًا لقوله -ﷺ-: «وإن تَولَّيت فإن عليك إثم الأريسيين»، ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]»(٢٤).

وعودة إلى قاعدة «الأحكام تتعلق بالمعاني لا بالألفاظ»، فإن أهل الكتاب الذين آمنوا بنبيهم وكتابهم، وآمنوا بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رسولًا من عند الله، والقرآن كلام الله، فإنهم يؤتون أجرهم مرتين، ولا يقتصر تضعيف الأجر عليهم فقط، إذ يشمل أصنافًا آخرين غير أهل الكتاب، وهذا ما يعضده قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨]، وقد قال مقاتل: «لما نزلت: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية، فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي -ﷺ-، فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الآية، فجُعل لهم أجر مثل أجور مؤمني أهل الكتاب»(٢٥).

لما كان أهل الكتاب يؤتون الأجر مرتين؛ لإيمانهم بنبيهم وكتابهم، ونبينا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكتابنا، فكذلك بالنسبة للأميين الذين آمنوا بمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبالقرآن الكريم، وآمنوا وصدقوا بالأنبياء الذين كانوا قبله وبالكتب التي أنزلت، فإنهم يؤتون الأجر مرتين أيضًا.

رابعًا: قوله ﷺ: «والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده»:

إن العبد الصالح الذي يقوم بواجبه تجاه خالقه من طاعة وعبادة وقيام للأوامر وانتهاء عن النواهي، ثم يقوم بواجبه تجاه سيده بأداء حقه والنصح له كان ممن يضاعف لهم الأجر مرتين.

قال ابن عبد البر -رحمه الله-: «معنى هذا الحديث عندي(٢٦) أن العبد لما اجتمع عليه أمران واجبان، طاعة ربه في العبادات، وطاعة سيده في المعروف فقام بهما جميعًا كان له ضعف أجر الحر المطيع لطاعته، لأنه قد ساواه في طاعة الله وفضل عليه بطاعته، قال: ومن هنا أقول: إن من اجتمع عليه فرضان فأداهما أفضل ممن ليس عليه إلا فرض واحد فأداه، كمن وجب عليه صلاة وزكاة فقام بهما فهو أفضل ممن وجبت عليه صلاة فقط، ومقتضاه أن من اجتمعت عليه فروض فلم يؤد منها شيئًا كان عصيانه أكثر من عصيان من لم تجب عليه إلا بعضها»(٢٧).

نجد أن ابن عبد البر لم يتوقف عند ألفاظ الحديث فقط؛ بل نظر إلى معاني هذه الألفاظ، وما

يترتب عليها من أحكام، لذا فإن الأمر لا ينحصر ولا يقتصر على لفظ «العبد» المذكور في الحديث؛ بل يتجاوز معنى الرق ليشمل غيره من المعاني، إذ كل إنسان عبد لله، ومن هنا فكل ابن يؤدي حق الله وحق والديه له أجران، وكل زوجة أدت حق الله وحق زوجها وعيالها فلها أجران، وكل أجير أدى حق الله وحق مستأجره فله أجران، والعامل الذي يؤدي حق الله وحق مدير عمله وينصح له فله أجران. والنصح يشمل أداء حقه من الخدمة وغيرها كما ذكر ابن حجر[28]، كما يشمل الإخلاص في العمل واتقانه.

* * *

الهوامش:

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط ٢٠٠٤/١م، ١٤٢٥هـ، ٨٤٢/١.

(٢) انظر: القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه لمحمد بكر اسماعيل، دار المنار، ط١٩٩٧/١م، صص: ٣٩، ٤٠.

(٣) موسوعة القواعد الفقهية لمحمد صدقي بن أحمد البورنو، مكتبة التوبة، دار ابن حزم، الرياض، ط ٢٠٠٠/١م، ٢٣١/٢.

(٤) شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط ٢، ص: ٥٥.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، حديث رقم: ٣٠١١.

(٦) صحيح البخاري، كتاب النكاح/ ٥٠٨٣. كتاب العلم/ ٩٧. كتاب أحاديث الأنبياء/ ٣٤٤٦. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان/ ١٥٤. وسنن النسائي، كتاب النكاح، عتق الرجل جاريته ثم يتزوجها، الصحيحة للألباني/ ١١٥٣.

(٧) صحيح البخاري، كتاب العتق، حديث رقم: ٢٥٤٦، و ٢٥٤٨، و ٢٥٥١، و ٢٥٥٠.

(٨) صحيح البخاري، كتاب العتق، حديث رقم: ٢٥٤٤.

(٩) صحيح البخاري، كتاب العتق، حديث رقم: ٢٥٤٧.

(١٠) قاله في صدد شرحه للحديث رقم ٥٠٨٣، في كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها.

(١١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، د ط، المجلد ١٢٧/٩.

(١٢) المرجع نفسه : مج ١٤٦/٦.

(١٣) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، مج ٤٠٩/١.

(١٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٦٥/٢، ٢٣٦٦.

(١٥) المرجع نفسه: ٢٣٦٦.

(١٦) قوله: يعني أباه؛ أي أب علي بن رفاعة الذي روى الحديث عنه جرير.

(١٧) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، خرج أحاديثه: أبو عبد الله محمود بن جميل، مكتبة الصفا، ط ٢٠٠٢/١م، ص: ٢٠٧.

(١٨) تفسير القرآن العظيم لعماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت- لبنان، د،ط، ٣٩٣/٣.

(١٩) صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار ومكتبة الهلال، د،ط، ٣٧٩/٢.

(٢٠) فتح الباري، ١٩١/١، ١٩٢.

(٢١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، (٧).

(٢٢) السيرة النبوية لأبي الفداء اسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط ١٩٧٨/٢م، ٤٩٨/٣.

(٢٣) فتح الباري، ٣٨/١.

(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي، خرَّج أحاديثه: محمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، ط ١٤٢٤/١هـ، مج: ٣، ج: ١٢، ص: ٨٧.

(٢٥) لباب النقول، ص: ٢٦٦.

(٢٦) يقصد حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري في صحيحه تحت رقم: ٢٥٤٨، «للعبد المملوك الصالح أجران».

(٢٧) فتح الباري، ١٧٦/٥.

(٢٨) المرجع نفسه: ١٧٦/٥.

أهمية مَعْرِفَة الاختلافات في المتون والأسانيد

بقلم: **الأستاذ عبد الرزاق القاسمي الأمروهي**(*)

إذا كَانَ كُلّ علم يستمد شرفه من مدى نفعه، فإن العلم بمعرفة الاختلافات الَّتِيْ تقع في المتون والأسانيد لَـهُ أهمية كبيرة؛ لأن علم الْحَدِيْث من أشرف العلوم الشرعية، ومعرفة الاختلافات لها أثر كبير في تمييز الْحَدِيْث الصَّحِيْح من السقيم.

ثُمَّ إن الَّذِيْ يزيد هَذَا الفن أهميةً أنه من أشد العلوم غموضًا، فلا يدركه إلا من رزق سعة الرِّوَايَة، وَكَانَ مع ذلك حادَّ الذهن ثاقب الفهم دقيق النظر كثير المران. ومعرفة الاختلافات والترجيح بينها من الأمور الَّتِيْ لا تنال إلا بدربة طويلة في الإعلال والتضعيف ومعرفة السند الصَّحِيْح من الضعيف، فَمَنْ أَكْثَرَ الاشتغال بعلم الْحَدِيْث وحفظ جملة مستكثرة من المتون وعرف خفايا المتون والأسانيد ومشكلاتها استطاع أن يميز الْحَدِيْث الصَّحِيْح من الْحَدِيْث المختلف فِيْهِ؛ لذا قَالَ الربيع بن خُثَيْم(المتوفى:٦١هـ): «إن للحديث ضوءًا كضوء النهار تعرفه وظلمة كظلمة الليل تنكره» (سير أعلام النبلاء:٤/٢٥٨) .

ومعرفة العلل واختلافات المتون والأسانيد هِيَ لُبُّ القضايا في علوم الْحَدِيْث وأدقها وأغمضها، وَقَدْ قعّد الْمُحَدِّثُوْنَ النقاد القواعد لتنقية الأحاديث النبوية وحفظها من أوهام الناقلين وأخطائهم، ومصدر اختلاف المتون والأسانيد يبقى خفيًا غامضًا لا يكشفه إلا من جمع بَيْنَ الحفظ والفهم والمعرفة. ومعرفة الاختلافات في المتون والأسانيد أمر خفيٌّ غامض لا يصل إِلَيْـهِ نظر الباحث إلا بالغربلة والدراسة المعمقة مع رصيد كبير من الممارسة الحديثية. ثُمَّ إنّ الخبرة وطول المذاكرة وزيادة الحفظ والملكة القوية، وجمع الأبواب والتمرّس المستمر في ذَلِكَ هُوَ الَّذِيْ جعل الأئمة النقاد يعرفون الاختلافات بالنظر إِلَيْهَا لمخالفتها ما لديهم من صواب في المتون والأسانيد.

و عَلَى طالب الْحَدِيْث قَبْلَ أن يعلَّ حديثًا بالاختلاف أن يجمع طرق الْحَدِيْث ويستقصيها من المصنفات والجوامع والمسانيد والسنن والأجزاء، ويسبر أحوال الرُّوَاة فينظر في اختلافهم وفي مقدار حفظهم ومكانتهم من الضبط والإتقان، وعند ذَلِكَ وبعد النظر العميق في القرائن والمرجحات والاستعانة بأقوال الأئمة نقاد الْحَدِيْث وحفاظ الأثر وإشاراتهم؛ يقع في نفس الباحث الناقد أن الْحَدِيْث معلٌّ بالاختلاف، كأن يَكُوْن الْحَدِيْث الموصول معلًا بالإرسالِ أَوْ الانقطاع أَوْ يَكُوْن المرفوع معلًا بالوقف أو أن هناك سقطًا بسبب التدليس، أو يجد دخول حَدِيْث في حَدِيْث أو يجد وهم واهمٍ أو ما

(*) أستاذ الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية العربية بجامع أمروها، يو في الهند.

أشبه ذَلِكَ من العلل القادحة.

والنظر العميق والتعرف عَلَى الاختلافات في المتون والأسانيد لَهُ أهمية بالغة للفقيه فضلًا عَنْ المحدِّث؛ لأن الفقيه لا يستطيع أن يعرف صحة الْحَدِيْث من عدمها حَتَّى يقر في نفسه ويعتقد أنّ هَذَا الْحَدِيْث خالٍ من الخلل والوهم بسبب الاختلافات. والنظر والتنقير في الترجيح حسبَ المرجحات والقرائن المحيطة بالحديث مما يعين الفقيه والمحدّث على مَعْرِفَة الْحَدِيْث الصالح للاحتجاج والعمل من غيره.

إنّ جهابذة الْحَدِيْث ونقاده وصيارفته وأفذاذه حثوا عَلَى مَعْرِفَة الاختلافات، فَقَالَ الإمام أحمد بن حَنْبَل -رحمه الله-: «إن العالم إذا لَمْ يعرف الصَّحِيْح والسقيم، والناسخ والمنسوخ من الْحَدِيْث لا يسمى عالمًا» (مَعْرِفَة علوم الْحَدِيْث، للحاكم ص:٦٠)

وَقَالَ قتادة بن دعامة: «من لَمْ يعرف الاختلاف لَمْ يشم أنفه الفقه» (جامع بيان العلم٢/٤٦).

وَقَالَ سعيد بن أبي عروبة (المتوفى:١٥٦هـ): «من لَمْ يَسْمَع الاختلاف فلا تعدوه عالمًا» (جامع بيان العلم ٢/٤٦).

وَقَالَ عطاء بن أَبِي رباح (١١٤هـ): «لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حَتَّى يَكُوْن عالمًا باختلاف الناس» (جامع بيان العلم ٢/٤٦).

هذا وغيره من أقوال الأئمة النقاد في حثهم عَلَى معرفة الاختلافات ودراستها حَتَّى يخرج طالب العلم فقيهًا محدّثًا، وَقَدْ أدرك الصدر الأول من أهل العلم أهمية ذَلِكَ للفقيه والمحدِّث، وأنَّ الفقه والحديث صنوان لا ينفكان وتوأمانِ مُتلازمان لا غِنَى لأحدهما عَنْ الآخر، ومَنْ كَلَّ في أحدهما خيف عَلَيْهِ السقط في الآخر وَلَمْ يُؤْمَن عَلَيْهِ من الغلط؛ بَلْ ربما كَانَ مِدعاة للوهم والإيهام. ونجد السابقين من العلماء حثوا عَلَى تعلم العلمين، روى المحدث الشهير مُحَمَّد بن جعفر بن إدريس الكتاني، (المتوفى: ١٢٧٤هـ) عَنْ سفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الله بن سنان قالوا: «لَوْ كَانَ أحدنا قاضيًا لضربنا بالجريد فقيهًا لا يتعلم الْحَدِيْث ومحدّثًا لا يتعلم الفقه». (نظم المتناثر:٨)

وَقَدْ نبّه الْحَاكِم النيسابوري عَلَى أن علم الفقه أحد العلوم المتفرعة من علم الْحَدِيْث، فَقَدْ قَالَ: «مِنْ علم الْحَدِيْث مَعْرِفَة فقه الْحَدِيْث، إِذْ هُوَ ثمرة هَذِهِ العلوم، وبه قوام الشريعة، فأما فقهاء الإسلام أصحاب القياس والرأي والاستنباط والجدل والنظر فمعروفون في كُلّ عصر وأهل كُلّ بلد، ونحن ذاكرون بمشيئة الله في هَذَا الموضع فقه الْحَدِيْث، عَنْ أهله ليستدل بِذَلِكَ عَلَى أن أهل هَذِهِ الصنعة من تبحر فِيْهَا لا يجهل فقه الْحَدِيْث، إِذْ هُوَ نوع من أنواع هَذَا العلم» (مَعْرِفَة علوم الْحَدِيْث:٦٣).

و نلاحظ أن العلماء من أهل الفقه والحديث قَدْ أَلّفوا كتبًا جامعةً تناولوا فِيْهَا الاختلافات فأبدعوا فِيْهَا؛ لذا نجد الإمام الشَّافِعِيّ أَلّف فِي اخْتِلاَفِ الْحَدِيْث، ثُمَّ تبعه ابْن قتيبة، وأبو يَحْيَى زكريا بن يَحْيَى الساجي، والطحاوي، وابن الجوزي. وهذه الكتب تضم اختلافات المتون والأسانيد، وَهِيَ دراسات علمية جادة قل نظيرها، تدلنا عَلَى اهتمام الْمُحَدِّثِيْنَ بالجانبين الفقهي والحديثي. والتعرف عَلَى الاختلافات في العِلْمَين يعصمه من الزلل ويقيه الوهمَ.

أديب العربية الكبير وكاتبها البصير:

فضيلة الشيخ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي – رحمه الله تعالى –

١٣٥٢-١٤٤٠هـ = ١٩٣٣-٢٠١٩م

بقلم: **رئيس التحرير**
nooralamamini@gmail.com

ما إن عَمَّ نعيُ العالم الصالح أديب العربية الكبير وكاتبها البصير فضيلة الشيخ الشريف محمد واضح رشيد الحسني الندوي/ أستاذ دارالعلوم لندوة العلماء، في الصباح الباكر من صبيحة يوم الأربعاء: ٩/جمادى الأولى ١٤٤٠هـ الموافق ١٦/يناير ٢٠١٩م، حتى خَيَّمَ على الأوساط الدينية والعلمية والثقافية كلِّها جوٌّ من الحزن والكآبة تَرَكَ كلَّ عضوٍ فيها ساكتًا واجمًا، يُعَزِّي الكلُّ بعضُهم بعضًا بهذا المصاب العظيم.

وقد أَكَّدَتِ الأنباءُ الآتية عن طريق المصادر العليمة الموثوق بها أنه – رحمه الله – وَافَتْه المنيةُ بالضبط في الساعة الخامسة والنصف من صباح ذاك اليوم قُبَيْلَ رفعِ أذانِ الفجر. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وَسَّعَ اللهُ عليه رحماته، وأدخله فسيحَ جنّاته، وجزاه عن كلِّ ما قَدَّمَه لأمّته من الخدمات، وكَتَبَه لها من الحروف والكلمات، وصَاغَه لها من النصوص والعبارات الناطقة، الصَّارِخَة ضدَّ الباطل، الهَاتِفَة لصالح الحق، المُنَادِيَة باليقين والإيمان، المُثِيْرَة للحنين للجِنَان.

إنّ كلَّ نفس ذائقة الموتِ، وكلَّ حَيٍّ مُعَرَّضٌ للفناء، وكلَّ قادمٍ للدنيا ذاهبٌ عنها لا مَحَالَةَ؛ ولم يَرَ الإنسانُ حقيقةً أَشْبَهَ بالباطل من الموت، كما قال سيدنا وسيد التابعين الحسن البصري – رحمه الله (٢١-١١٠هـ = ٦٤٢-٧٢٨م) وبما أنه يَطَّرِدُ ويَتَوَاتَرُ، وتَتَّصِل قُدُمَاتُه، وتَسْتَمِرُّ هجماتُه كلَّ لحظة، فصار شيئًا عَاديًّا، لا ينتبه له أحدٌ من البشر، ولا يستقطب اهتمامَه؛ ولكنّه عندَما يُدَاهِم عظيمًا من العظماء مثلَ فضيلة الشيخ الشريف الحسني السلالة، النازل في الصلاح والإنسانية مستوى أسرته الحسنية وشجرة نسبه الشريفية محمد واضح رشيد الحسني الندوي يجعل الناسَ يَتَأَكَّدُون أنه – الموتَ – حقيقة واردة لا تقبل الإنكارَ؛ حيث إنه اصطاد اليومَ نفسًا بشريةً عملاقةً من اصطياده لها جَعَلَ قلوبَ عدد لا يُحْصَىٰ من الإنسان تَتَفَجَّع و تَرَكَ عيونَ عدد لا يُحَدُّ من الخلق تبكي أيامًا لا يعلم نهايتَها إلّا اللهُ.

أُدِّيَتْ عليه الصلاةُ أولًا إثر صلاة الظهر من اليوم نفسه في داخل محيط دارالعلوم لندوة العلما التي حَضَرَها العلماءُ والطلابُ وأساتذةُ الدار وخلقٌ

لا يُحْصَىٰ من أهالي المدينة والمتوافدين من خارج المدينة الذين تمكنوا من الحضور عاجلًا بمواصلات تيسّرت لهم. وصَلّاها بالناس العالمُ الجليلُ فضيلةُ الشيخ سعيدٌ الأعظمي الندوي مدير دارالعلوم ندوة العلماء ورئيسُ تحرير مجلة «البعث الإسلامي»/ حفظه الله ورعاه.

ثم نُقِلَ جثمانُ الفقيد الغالي إلى موطنه ومسقط رأسه قرية «تكية كلان» – مسكن الأسرة الحسنية – الملاصقة لمدينة «رائي بريلي» (Rae Barelli) بولاية أترابراديش؛ حيث أُدِّيَتْ عليه الصلاةُ ثانيًا إثر صلاة المغرب من الليلة المتخللة بين الأربعاء والخميس: ٩-١٠/جمادى الأولى ١٤٤٠هـ الموافق ١٦-١٧/ يناير ٢٠١٩م، وأَمَّها الشقيق الأكبر للفقيد العالمُ الهندي الكبيرُ فضيلة الشيخ الشريف محمد الرابع الحسني الندوي –تولّاه الله تعالى بحفظه ورعايته– الأمين العالم لندوة العلماء ورئيس هيئة الأحوال الشخصية لعموم الهند؛ حيث تم تورية جثمانه في المقبرة الأسريّة التي تضمّ قبورَ أعضاء العائلة الحسنية المتوفين. وحضر هذه الصلاةَ الأخيرةَ عليه أعضاءُ الأسرة وآلافُ الناس القادمين من المدن والقرى القريبة والبعيدة والضيوف الذين حضروا من الأمكنة البعيدة للمشاركة في الصلاة والدفن وتعزية أفراد الأسرة.

وقد كان الفقيدُ ابنَ أخت سماحة الشيخ السيّد أبي الحسن علي ا لحسني الندوي – رحمه الله – (١٣٣٣-١٤٢٠هـ = ١٩١٤-١٩٩٩م) وكان يتصف من الصفات الإنسانية النبيلة بما كان يُؤَكِّد كلَّ التأكيد أنه فرعُ السُّلَالَة الحسنيّة العلويّة الفاطميّة المحمّديّة الهاشميّة القرشيّة، من البراءة والمروءة والكرم، والسَّلَامة من بسط الأذى باللسان أو الجوارح أو السلوك، والمواظبة على الأوامر والنواهي الإلهية، والانصياغ في السيرة النبويّة، والوقوف عند حدود الله، وبساطة المؤمن الصادق، ونعومة الأخلاق، ولين الجانب، والآلِفِيَّة والمألوفية، وعذوبة المنطق، والهدوء في ممارسة أيٍّ من المعاملات مع أيِّ إنسان، وبُدُوِّه إنسانًا عاديًّا في جميع التصرفات في الحياة؛ فكان لا يَصْدُرُ في أيٍّ منها عن تَعَالٍ أو تسامٍ أو شعور بعَظَمَةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى عُلوِّ الحَسَبِ والأَرُومَة، أو المَنْصِب أو الانتماء.

ولذلك كان محبوبًا حقًّا لدى جميع أفراد المجتمع، فرَغْمَ أنه قد مَضَىٰ على وفاته أكثر من الشهرين والنصف لا تزال صورتُه البريئة تتمثل في مُخَيِّلَة الكاتب، ويبدو كأن شبحَه يَتَرَدَّد ويَتَرَاءَىٰ أمامَه بطلاقة وجهه، وابتساماته الراقصة على شفتيه، ومواساته مع الكل، ومشاطرته الصادقة لأحزان الآخرين وآلامهم، ومشاركته الواقعية في شجون المفجوعين والمهمومين والمكروبين؛ ولكن موقفًا منه كان لا يشفّ بنحو ما أنّهم يُضْطَرُّون أن يكونوا مدينين له تجاهَ مشاركته في شجونهم وهمومهم.

لا يزال الكاتبُ يتذكّر وجهَه المغسولَ بأنوار

التقـوى ورُهْبَانيتِـه الليليـةِ، وشخـصيتَه المُتَحَلِّيَـة بإنجـازاتِ علمِـه وفـضلِه وقلمِـه، وحياتَـه المُتَنَكِّـرَةَ للظهـور والـشهرة، وسيرتَه الدافعـةَ للنـاس إلى حبِّـه ومُؤَانَسَتِه، ونفسَه التي كانت لا تعرف سخطًا على أحـد، ومَعَـالِمَ مَكْرُمَـاتِ وبُطُـولَاتِ نجابتِـه الأسريّـةِ وأصالتِه السلاليّةِ المنصوبةَ على طريق الحياة.

انتـسب كاتـبُ الـسطور إلى هيئـة التـدريس بـدارالعلوم نـدوة العلـماء في يونيـو ١٩٧٢م (جمـادى الأولى ١٣٩٢هـ) وفي ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ) عـــــاد الفقيدُ إلى وطنه من دهلي العاصمة، حيث كان يعمل مديرًا ومترجمًا بالقسم العربي بإذاعة عموم الهند منذ عـام١٣٧٢هـ/١٩٥٣م؛ مـستقيلًا مـن عملـه هنـاك، رَغْمَ أنّه كان ينال لقاءَ خدمته في الإذاعة راتبًا كبيرًا؛ ولكنـه نَـذَرَ حياتَـه للقيـام بخدمـة دارالعلـوم نـدوة العلماء على راتب ضئيل يناله العلماءُ في هذه الديار لقـاءَ خـدماتهم في الجامعـات والمـدارس الإسـلامية الأهليّـة، وانـسلك إلى سـلك التـدريس، وإلى ذلـك عمـل في الـصحافة منتميًـا إلى «البعـث الإسـلامي» الـشهرية ورئـيسَ تحريـر لجريـدة «الرائـد» النـصف الشهرية، كما ظَلَّ يُقَدِّم خدماتِه الشاملةَ في المجال الإداريّ لدارالعلوم ندوة العلماء تحت إشراف خاله العظيم المفكر الإسلامي الشهير سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي – رحمه الله تعالى – وفي ضوء مشورة أخيه الأكبر منه فضيلة الشيخ محمد الرابـع الحـسني النـدوي – حفظـه الله ورعـاه – ومشاركة من ابن خاله الأكبر الدكتور فضيلة الشيخ عبـد العـلي الحـسني: فقيـد اللغـة العربيـة والفكـر الإسلامي الكاتب العبقري الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – (١٣٥٤-١٣٩٩هـ = ١٩٣٥-١٩٧٩م) رئيس تحرير «البعث الإسلامي» ومساهمة من زميله النشيط فضيلة الشيخ سعيد الأعظمي الندوي – حفظه الله – رئيس تحرير «البعث الإسلامي».

وقد ظلّ خلال خدمته لدارالعلوم ندوة العلماء شاعرًا شعورًا قويًّا بسعادة غامرة جبرتِ الشعورَ بالشقاء الذي ظلّ يُنَاوِبُه خلالَ عمله بإذاعة عموم الهند رغم المُرَتَّب الكبير الذي كان يتقاضاه كلَّ شهر لقاءَ خدمته، ولا سيّما لأنه ما زال يَحْظَى في وطنه وخـلال خدمتـه لـدارالعلوم نـدوة العلـماء بـصحبة خاله: العالم الهندي الكبير الداعية المعروف سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي – رحمه الله تعالى – .

وترك كذلك تَقَاضِي هذا المُرَتَّب القليل الذي كـان ينالـه مـن دارالعلـوم نـدوة العلـماء منـذ عـام ٢٠٠٦م (١٤٢٦هـ) عندما أُسْنِدَ إليه مَنْصِبُ مدير الشؤون التعليمية إثرَ وفاة مديرها السابق فضيلة الشيخ الدكتور السيد عبد الله عباس الندوي – رحمه الله- (١٣٤٣-١٤٢٦هـ = ١٩٢٥-٢٠٠٦م) وظـلّ يُقَـدِّم خدماتـه صـادرًا عـن الإخـلاص والاحتساب، كَثَّرَ اللهُ أمثالَـه، ووَفَّقَنَـا أن نأتـسيَ بأسوته.

وكما أَسْلَفْنَا ظَلَّ رئيسَ تحرير لجريدة «الرائد» منذ وروده أستاذًا إلى دارالعلوم ندوة العلماء، ولما توفي ابن خاله الأكبر: فضيلة الأستاذ محمّد الحسني – رحمه الله – في رجب ١٣٩٩هـ/يونيو ١٩٧٩م أسندت إليه مكانَه رئاسةُ تحرير مجلة «البعث الإسلامي» بالاشتراك مع فضيلة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي/ حفظه الله. وكان منذ ما قبل تَوَلِّيه رئاسة تحرير المجلة ظلّ يكتب فيها زاوية «صُوَرٌ وأوضاع». وكانت زاويتُه هذه حَظِيَّةً لدى القراء الذين كانوا يُقْبِلُون عليها إقبالًا حافلًا، ويقرؤونها بشوق ونَهَامَة. وكان – رحمه الله – في هذه الزاوية يتناول الأوضاعَ العالمية بالتحليل والتعليق والدراسة العميقة، فكان يُحَدِّد مواضع الداء، وكان يصف الداء، صادرًا عن وجهة نظر إسلامية وعقلية معًا، فكان يكون ما يَصِفُه من الأدوية، سريعَ المفعول عاجلَ الشفاء.

وقد تَبَدَّىٰ – رحمه الله – في هذه الزاوية خصوصًا وغيرها من كتاباته عمومًا، مُحَلِّلًا بصيرًا، ومُؤَرِّخًا ثاقب النظر واسع الدراسة كبير الإطِّلَاع، وناقدًا حكيمًا واعيًا للحضارة الغربيّة، ودسائس السياسة الاستعماريّة ونفاقها وزدواجيّتها، ومُفَكِّرًا إسلاميًّا رُوَاعَ الفؤاد، وأديبًا إسلاميًّا وكاتبًا ذكيًّا يُحْصِي على الأعداء جميعَ ذنوبهم؛ فالقراءُ المُفْعَمُون تقديرًا له وإعجابًا بكتاباته، لم يكتفوا على الإقبال البالغ عليها، وإنما دَعَوْا له كثيرًا؛ لأنهم شعروا بقوة أنها – كتاباته – أَثْلَجَتْ صدورَهم وأَقَرَّتْ عيونهم؛ فجزاه اللهُ أَحْسَنَ ما يجزي عبادَه المحسنين.

كان القراءُ – الذين يتمتعون بمعرفة محاسن اللغة والبيان، وروعة الأسلوب، ودقة التعبير، وجمال الصياغة، والسهولة البلاغية الساحرة – يَلَذُّون جدًّا، لا زاوية «صورو أوضاع» وكلماته التي كان يكتبها كافتتاحيّاتٍ لجريدة «الرائد» بل جميع كتاباته التي تتحلّى دائمًا بتلك البساطة والعفويّة، والسهولة والحلاوة غير العادية التي لا توجد في كتاباتِ كاتب بعد ابن خاله وشقيق زوجته الكاتب الإسلامي المفقود المثال الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – إن كاتب السطور يحلو له أن يقول: إن كتابات فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الندوي – رحمه الله – كانت تعكس شخصيته، فكانت تكون طبيعيّة كما كانت شخصيتُه مصوغة في بوتقة الطبيعة، فكانت – كتاباته كلها – عَفْوَ الخاطر مُنَزَّهَةً من جميع معايب التكلّف، فكانت تكون آسرةً للقلوب، ساحرة للعقول، وكما كان هو سهلًا ميسورًا للجميع، كذلك كانت كتاباتُه سهلةً عذبةً بسيطة في مفرداتها وصياغتها وأسلوبها، نموذجًا لحضور البديهة، مساغة للقراء بالنسبة للتَلَقِّي والاستفادة.

وكان من مزايا كتاباته أنها كانت تمتاز بكونها عصريّةَ الأسلوب، وكانت تُجَانِب أسلوبَ العلماء

والفقهاء، وكانت تَنْهَج منهجَ الأدباء والصحفيين والكُتّاب المعاصرين، وكانت صبغتُه هذه جَلِيَّةً زَاهِيَةً؛ ولهذا كان – رحمه الله – يبتعد كليًّا عن الترادف والتكرار والإطالة وطرحِ فكرةٍ مّا من خلال جُمَل عديدة مُمَاثِلَة. وأمثالُ كتاباته تأتي آخِذَةً بألباب القارئ بصورة طبيعيّة، لا يسأمها في أيِّ حال، بل يقرؤها ويَتَلَقَّاهَا حتى في حالة التعب والاشتغال وتَخَالُج الهموم؛ بل قد يُؤَجِّل أعمالًا تُلِحُّ عليه؛ ويُضْطَرُّ أن يُنْهِيَ قراءَتها في ظرف الوقت الذي بدأها فيه، حتى لا يبقى في قلبه رغبةٌ تُخَالِجُه نحوَها – الكتاباتِ – .

ورفقُه هذا، وسهولتُه هذه، وعطفُه ذاك، ومواساته تاك ظَلَّت من مزايا تدريسه كذلك، فظلّ الطُلَّابُ مألوفين له منجذبين إليه، فكانوا لا يشعرون بحاجز نفسيّ دون الاستفادة منه والرجوع إليه واستفساره عن أيّ قضيّة علميّة أو لغوية أو كتابية أو إنشائية. إن الطلاب وجدوا منه عطفًا أبويًّا، وسلوكًا صادرًا عن الإخلاص، وأُلْفَةً مُتَنَاهِيَةً، فاستفادوا منه استفادةً وافيةً، فكان مقدمُه لدارالعلوم ندوة العلماء وانضمامه إلى سلك التدريس بها بمنزلة إضافة فصلٍ جديد من فصول التدريس وتخريج الطلّاب في المُؤَهِّلات الكتابية والإنشائيه بصفة خاصّة؛ فخلال تدريس كاتب السطور الذي امتدّ على نحو عَشْرِ سَنَوَات جرى ذكرُ تدريسه عمومًا وتدريسه لمادة الإنشاء والترجمة من العربية إلى الأردية وبالعكس على ألسنة الطلّاب كثيرًا؛ حيث كانوا يقولون: إن أسلوب تدريس فضيلة الشيخ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي سهلٌ جدًّا علينا نحن الطلابَ، وأنه يمتاز بالحِسِّ العصريّ فيما يتعلّق بالأسلوب الكتابي وصياغة النصّ، وهذا إلى أنه رفيق السلوك، ليّن الجانب، يجتنب الزَّجْرَ والملامَ إلّا في القليل النادر، ولا يعتمد في التعليم والتلقين على العُنْف والتشدُّد مثلَ بعض المُعَلِّمِين المُؤَهَّلِين، فلا نَتَحَرَّج في سؤالنا إيَّاه أكثرَ من مرة؛ لأنه لا يعاملنا معاملةَ الأستاذ البالغ الوقار الزائد الجدِّيَّة، ولا نرى فيه الشعورَ المُرْهَفَ الشديدَ بكونه المُعَلِّمَ المُسَيْطِرَ علينا؛ بل نرى فيه كأنه صديقُنا الوفيّ المخلص، فنظلّ دائمًا مُتَآلِفِين معه، مع احترامنا له غايةَ الاحترام.

وهذا الانطباعُ الذي كان الطلّابُ يُبْدُون عنه، كان يبديه عنه الأساتذة والمُوَظَّفُون وجميع مَنْ جلسوا إليه أو تَعَرَّفُوا عليه. وكان ذلك يَعْكِسُ شخصيتَه. كان – رحمه الله – عمرُه عمرُ مُعْظَم أساتذة كاتب هذه السطور؛ ولكنه كان يُعَامِله معاملةَ التِّرْبِ مع تِرْبِه؛ ولذلك كان كاتبُ السطور طَوَالَ الفترةِ، التي أمضاها في دارالعلوم ندوة العلماء، مدينًا لحبّه وعطفه بعد حُبِّ وعطف فقيد الكتابة الإسلامية فضيلة الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – وعَلَّمت تجاربُ الحياةِ كاتبَ السطور أنّ الإنسانَ لا يُعْجَبُ بإنسانٍ لعلمه وفضله مثلما

يُعْجَب به لحسن أخلاقه، وتواضعه، وإنكاره لذاته، وإيناسه لغيره بعذوبةِ منطقه، وإنسانيته بمعناها الصادق. ويكون الإنسان محبوبًا لدى الله وخلقه قدرَ تَحَلِّيه بهذه الصفات السامية وتَبَنِّيه لهذه العادات النبيلة التي تَضَعُ الفرقَ الدقيقَ بين الإنسان والبهائم.

والفقيدُ الغالي أَضْفَتْ عليه المحبوبيةَ فضيلتُه في مجال العلم والثقافة والأدب؛ ولكن إنسانيتَه الأصيلةَ، ومروءتَه الطبيعيّةَ، وطلاقةَ وجهه المتناهيةَ، وصلاحَه المركوزَ في عمق شخصه، وانكسارَه الحقيقيَّ الذي كان يفيض من كلٍّ من سلوكه وسيرته العامّة في الحياة جَعَلَتْه مرغوبًا فيه لدى جميع الناس بنحو يعجز القلمُ عن وصفِه.

وكان يتفق لنا اللقاءُ معه أكثر من مرة كلَّ يوم، وفي الأغلب يتم اللقاء معه في مكتب جريدة «الرائد» وأحيانًا في مكتب مجلة «البعث الإسلامي» وفي غرفة كاتب السطور السكنيّة حين كان يحضرها هو وأخوه الأكبر فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي/ حفظه الله لدى كتابة كاتب السطور بخط يده وبالقلم العريض عناوين جريدة «الرائد» وربما كانت تتم كتابة هذه العناوين في غرفة الأستاذ محمود الأزهار الندوي – رحمه الله –.

وقد يتمّ لقاؤنا مع الفقيد خلالَ الخروج من والدخول إلى الفصول الدراسية أثناءَ مرورنا بأروقة الفصول الدراسية في المبنى المركزي لدارالعلوم ندوة العلماء؛ وربّما على خُوانات الغَدَاء أو العَشَاء في مضيف دارالعلوم ندوة العلماء بمُنَاسَبَة نزول سماحة الشيخ الداعية الكبير أبي الحسن علي الحسني الندوي – رحمه الله تعالى – به، وكانت تَكْثُرُ هذه المناسبةُ السعيدةُ؛ ولدى حضورنا أحيانًا إلى قرية سماحة الشيخ الندوي – رحمه الله – الملاصقة لمدينة «رائي بريلي» المُسَمَّاة بـ«تكية كلان»؛ وبعد كل ثلاثة أو أربعة أيام خلال الحصّة الثانية أو الثالثة في منزل فضيلة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي – حفظه الله – في مجلس الشأي الذي كان يحضره كذلك فقيدُ الكتابة الإسلامية والفكر الإسلامي فضيلةُ الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – وكان مجلس الشأي هذا يَتَحَوَّل في الأغلب أدبيًّا لطيفًا؛ لأن الحضورَ كانوا يَتَبَادَلُون الأمثالَ والأبياتَ ذاتَ المعاني الرقيقة اللطيفة الحكيمة، فكانوا يهتزّون فرحًا وانبساطًا، ويَظَلُّون مسرورين لوقت طويل كأنهم قد حَظُوا بكنز ثمين يفوق التقديرَ.

وفي حالة عدم الظَّفَر بفضيلة الشيخ سعيد الأعظمي، ربما كان فضيلةُ الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – يقول لكاتب السور: أُخَيَّ! إني مُطَالَبٌ في هذه الساعات من اليوم بأن أكتب بعضَ الموادّ اللازمة، فأَشْرِبْنِي شايَك الذي سيُنْعِشُنِي إن شاء الله. كان الفقيد محمد الحسني – رحمه الله – يُسَمِّي «شأي دارجيلينغ» من إنتاج وتعليب شركة «لِيْبْتُون» الذي كان يُعِدُّه كاتبُ السطور بنحو

خاصّ، الشأيَ «المُنْعِش» وكان يرافقه في الأغلب الشيخ السيد محمد واضح رشيد الندوي – رحمه الله – فيَسْعَد كاتبُ السطور بتضييفهما ويشعر بلذّة غامرة غير مسبوقة.

وبفضل عطفه الأبوي أتاح لعدد وجيه من الطلّات المُجِدِّين أن يكونوا حريصين على إتقان اللغة العربية وكسب البراعة فيها على المستويين الكتابي والخطابي؛ لأنه كان يمتاز كذلك بأنه كان يُشَجِّع الطُّلَّابَ كثيرًا، ويُثِير مواهبهم الكامنة. إن بعض الأساتذة رغمَ فضلهم في التدريس والتلقين لا يهتمّون بتشجيع الطلاب من خلال المدح والتحبيذ، فلا يتمكنون من تخريج الطلّاب مُؤَهَّلِين في الموادّ التي يقومون بتدريسها؛ لأن التشجيع والتحبيذ لدى إجادة واجب دراسي من قِبَل الطلّاب عامل أساسيّ في تقدّمهم وصناعة مُؤَهِّلَاتِهم. وذلك جزء لازم من مسؤوليات المُعَلِّمِين.

على كلٍّ فكم من الطلاب جعلهم الفقيدُ يجرون على طريق العلم والدراسة، بفضل صفته هذه التي تُعْطِي دائمًا من المفعول ما لا تُعْطِيه الشدةُ والمُبالَغَة في التقييد بالمبادئ واللوائح الرسميّة، فضلًا عن الاحتراز عن المساهمة في صناعة المُؤَهِّلَات وتخريج الكوادر.

وكان بعض المتخرجين والكُتَّاب الواعدين يُقَدِّمُون إليه بعضَ إنتاجاتهم العلمية وخلاصاتهم الدراسية مكتوبةً، فكان يَتَغَاضَىٰ عن هناتهم الدراسيّة وزلّاتهم القلمية التي ربما تصدر من غير الناضجين في الكتابة والتأليف الذين لم يُتَحْ لهم بعدُ أن يختمروا عن طريق تجارب طويلة أَمْضَوْا فيها فترةً لابأس بها من رحلتهم الدراسية الكتابية في صفحات الكتب ومُؤَلَّفَات الأساتذة، وكان يُثْنِي على أعمالهم لحدٍّ كان يُشْعِرهم أنهم صاروا في فنِّهم أساتذةً فارعي الأقدام، وكان يُشِيد بجهودهم شفويًّا، وكتابيًّا كذلك إذا وَجَدَ فرصةً في أوقاته المُزْدَحِمَة بالأشغال.

ورَغْمَ أشغالِه المُتَّصِلَة المُتَمَثِّلَة في التدريس والكتابة والصحافة ظَلَّ يقوم بعدد من المسؤوليات الإداريّة والعلميّة والأدبيّة، ولم يَدَعْ أيَّ اختلالٍ يَتَسَرَّبُ إلى أيٍّ منها؛ فقد شغل مَنْصِبَ نائب الأمين العامّ لرابطة الأدب الإسلامي العالميّة ومنصب الأمين العام لقسمها الخاص بشبه القارة الهندية والبلاد الشرقية، والأمين العامّ لمجمع البحوث والمُؤَلَّفَات الإسلامية «المجمع الإسلامي العلمي»، ومنصب نائب الرئيس لمؤسسة دارعرفات بـ«تكية كلان» التابعة لمدينة «رائي بريلي» ومنصب مدير مدرسة فلاح المسلمين بقرية «تيندوا» إحدى قرى «رائي بريلي».

كما سَاهَمَ – تحت رعاية أخيه الأكبر فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي/ حفظه الله، ومع المشاركة معه – في إعداد وتأليف كثير من كتب المُقَرَّرَات الدراسيّة لدارالعلوم ندوة العلماء.

وانطلاقًا من ذلك أَلَّفَ كتابَ «تاريخ النقد للأدب العربي» وكتاب «مصادر الأدب العربي» وكتاب «تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي» وكتاب «تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي» وكتاب «أعلام الأدب العربي في العصر الحديث» بالإضافة إلى مُؤَلَّفَات أخرى باللغة العربية والأردية صغيرة وكبيرة، مثل: نحو نظام عالمي جديد، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، الدعوة الإسلامية ومناهجها، من صناعة الموت إلى صناعة القرارات، حركة التعليم الديني وتطوّر المنهج، مختصر الشمائل المحمدية، حركة رسالة الإنسانية.

ومن مُؤَلَّفَاتِه بالأردية:

مسئله فلسطين؛ ٹیپـــو سلطان شهيد، ايك تاريخ ساز قائد وشخصيت؛ نظام تعليم وتربيت: انديـــشے، تقاضـــے اور حل؛ إسلام مكمل نظام زندكي (حديث نبوى كى روشنى مــــيں) ندوة العلماء، ايك ره نما تعليمى مركز اور تحريكِ اِصلاح ودعوت؛ وما إلى ذلك.

كما نقل عددًا من الكتب من الأردية إلى العربية، مثل: الدين والعلوم العقلية، وفضائل الصلاة على النبي.

هذا إلى جانب كثير من المقالات المنشورة في كل من مجلة «البعث الإسلامي» وجريدة «الرائد» و«تعمير حيات» الأردية.

* * *

وُلِدَ الشيخ السيد محمد واضح رشيد الندوي في ٣/شعبان ١٣٥٢هـ الموافق ٢١/نوفمبر ١٩٣٣م في وطنه الأمّ قرية «تكية كلان» الملاصقة لمدينة «رائي بريلي» بولاية «أترابراديش» بالهند، والقريةُ مسكنٌ للسادة الحسنيين أُصَلَاءِ النسب، وهي تقع في الجانب الغربي من مدينة «رائي بريلي» على مسافة نحو كلو مترٍ، وكان من سكانها. ومن هؤلاء السادة الحسنيين كان المصلح والداعية والمربي والمجاهد الكبير السيد أحمد بن عرفان الشهيد – رحمه الله – (١٢٠١-١٢٤٦هـ = ١٧٨٦-١٧٣١م) حيث فيها وُلِدَ، وفيها نشأ وتربي، وفيها تدرّب على النضال والجهاد، و وَضَعَ خُطَطَ الجهاد ضدَّ الإنجليزِ وأعداءِ الإسلام المُوَالِين لهم في هذه القرية المتواضعة الهادئة النائية عن جميع مفاسد وسوءات الحضارة الغربية المُدَمِّرَة. وفي هذه القرية وُلِدَ في العصر الأخير خالُ الفقيد الغالي الشيخ السيد محمد واضع رشيد الندوي: الداعيةُ والمفكر الإسلامي الكبير المعروف في الدنيا كلها سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي الذي أنتج جميعَ مُؤَلَّفاتِه الدعوية والفكريّة والدراسية في هذه القريةِ السعيدةِ ذاتِ السكينةِ الإيمانيةِ والبركاتِ الروحانيةِ والإشراقاتِ الحَسَنِيَّة، فصارت هي على تواضعها بفضل نشاطاته الدعوية والتربوية والتزكوية مركزًا للدين والعلم، ورمزًا للصحوة الإسلامية، والبعث الإيماني، والإحياء الديني، الذي يُحَرِّكه اليومَ بعد

وفاة سماحة الشيخ الندوي خليفتُه وابن أخته فضيلةُ الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي – حفظه الله وأطال عمره مع كامل الصحة والعافية و وافر التوفيق – فهناك علماء شباب من الأسرة الحسنية الكريمة الأرومة يَتَوَفَّرُون في القرية على البحث العلمي، والكتابة والتأليف، والدعوة والإصلاح، والتعليم والتدريس، وعلى رأس هؤلاء الشباب الشيخ السيّد بلال الحسني الندوي ابن الشيخ محمد الحسني ابن الدكتور عبد العلي الحسني، وحفيدُ سماحة الشيخ أبي الحسني الندوي – رحمه الله – .

في هذه القرية، القصيرة القامة، الكبيرة القيمة، الجليلة المكانة، نَشَأَ الشيخُ محمد واضح رشيد الندوي، وتَرَعْرَعَ وتَرَبَّى، وتَلَقَّى التعليمَ الابتدائيَّ، ثم ارتحل إلى مدينة «لكهنؤ» عاصمة ولاية «أترابراديش» حيث التحق بدارالعلوم ندوة العلماء، وأَنْهَى فيها جميع المراحل الدراسيّة، وحَصَلَ منها على شهادة التخصص في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٥١م (١٣٧٠هـ) ثم حاز على شهادة الماجستير في اللغة العربية من جامعة المسلمين بمدينة «علي جراه» بولاية «أترا براديش» الهندية، وبدأ حياته العملية من «دهلي» عاصمة الهند، حيث عمل فيها رئيسًا لقسم اللغة العربية بإذاعة عموم الهند ومترجمًا بالقسم في الفترة ما بين ١٣٧٣–١٣٩٣هـ الموافقين لـ(١٩٥٣–١٩٧٣م، وأمضى الفترة ما بين ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) و وفاته في ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م في الخدمة الشاملة لدارالعلوم ندوة العلماء في ظلال عطف خاله سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي – رحمه الله – وبعده تحت رعاية وحبّ شقيقه الأكبر فضيلة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي – حفظه الله – وانتقل إلى رحمة الله حافرًا معالم حبّه الخالدة في قلوب العامة والخاصّة، فارتحل عن دنيا الناس، ولم ولن يرتحل عن دنيا القلوب، لأنه سَكَنَها وتَمَكَّنَ فيها، فهو سيبقى ذكرىً حبيبة في القلوب، ونشيدًا حلوًا على الشفاه، وذكرًا عذبًا على الألسنة.

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا
إِلَّا الَّتِي كان قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا

أَسْكَنَه اللهُ فسيحَ جنّاته، وألهم أهلَه وذويه ومحبيه الصبرَ والسُّلْوَانَ. خَلَّفَ الفقيدُ وراءَه وَلَدًا صالحًا سيدعو له وهو الأخ الأستاذ جعفر مسعود الحسني الندوي الذي هو كاتب متقن بالعربية والأردية وخَلَفَه في رئاسة تحرير «الرائد» كما خلف ثلاثة حَفَدَة وهم الأستاذ السيد خليل الحسني الندوي والأستاذ السيد أمين الحسني الندوي والسيد عبد الحي الحسني وهو طالب بدارالعلوم ندوة العلماء في قسم التخصص في اللغة العربية، وحفيدة، وأسرة آهلة بالعلم والفضل والتدين والتقوى.

(تحريرًا في الساعة ٨½ من الليلة المتخللة بين الثلاثاء والأربعاء: ١٨–١٩/رجب ١٤٤٠هـ الموافقين لـ ٢٦–٢٧/مارس ٢٠١٩م).

العالم الداعية، المصلح الفذ
الشيخ جميل أحمد القاسمي المباركفوري

بقلم: **مساعد التحرير**

انتقل والد كاتب هذه السطور فضيلة الشيخ الداعية الكبير جميل أحمد القاسمي المبارك فوري إلى جوار ربه الساعة السابعة والنصف مساء يوم الأحد: ٣/ربيع الأول ١٤٤٠هـ الموافق١١/نوفمبر عام ٢٠١٨م إثر مرض قصير في أحد مستشفيات ديوبند بعد إصابته بنوبة قلبية، وصلى عليه جمع هاشد من أساتذة و مشايخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند وطلابها وموظفيها إثر صلاة الظهر من يوم الاثنين عام ٢٠١٨م، وثوي جسمانه في المقبرة القاسمية حيث يستريح كبار علماء الجامعة ومؤسسها الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله وغيرهم من أساتذة الفقيد.

وبوفاته انحسر ظل والد رؤوف شفوق عن رأس الكاتب، وشعر بما لم يشعر به يومًا في حياته من التعاسة والحرمان من الرعاية والحنان. فقد كان نموذجًا رائعًا للتقوى والطهارة والعفاف و الدين والأمانة، وعلى مكانة سامية من العلم والفضل.

ولم يكن يعاني حضرة الوالد مرضًا يخشى معه مفارقتنا عما قريب، رغم أنه كان ألمَّ به نوبة قلبية قبل سبع أو ثماني سنوات وتناول العلاج الناجع على يد بعض الأطباء المشهورين في المنطقة، فتعافى منها تعافيًا لم يخطر معه بباله ولا بال أولاده وذويه أن تلم به النوبة القلبية من جديد، و تؤدي إلى موته بغتةً.

وقبل موته بثلاثة أيام فصاعدًا كان زارني وأهلي في ديوبند ببعض المناسبات العائلية، وكان حريصًا على زيارة ديوبند وعلمائها من زملائه في الدراسة وغيرهم، فلايدع فرصةً لزيارتها إلا استغلها واستفاد منها، و توجه إليها على جناح الطير، رغم أنه كان يعاني وجعًا شديدًا في الركبة منذ أعوامٍ طوال أعجزه عن القعود مستويًا على الأرض، والسير الطويل الحثيث.

اسمه ونسبه:

هو: جميل أحمد بن الحاج عبد الحي بن الحافظ خدا بخش، بن المولوي الطبيب عبد الله بن الشيخ بهولن بن الشيخ لعل محمد بن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ غلام محمد المباركفوري.

عائلته:

والده – جدي- الحاج عبد الحي لم يكن من أهل العلم إلا أنه كان رجلًا ديّنًا وعلى درجة عالية من حسن الأخلاق والمواساة والتواضع وهضم الذات، يتفانى في إكرام العلماء واحترامهم وقراهم ما استطاع إليه سبيلًا، فأخرج الله تعالى في ذريته علماء كثيرين: اثنين من أبنائه – اللذين تخرّجا في الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، والجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة وخدمَا علومَ الدين كثيرًا وهما: الفقيد الغالي، وشقيقه الأصغر الشيخ سعيد أحمد المباركفوري- وغير واحد من حفدته الذين لهم إسهامات مشكورة في خدمة الدين ونشر الثقافة الإسلامية في المراكز و المؤسسات الدينية الإسلامية الشهيرة في البلاد.

ولم نعثر على شيء من تراجم جده الشيخ بهولن فمن بعده، وأما ابنه المولوي الطبيب عبد الله، فقد كان من العلماء البارزين الذين احتلوا مكانةً ساميةً في الزهد والتقوى والعلم والفضل، ولقوا احترامًا واسعًا وشعبيةً كبيرةً من الأوساط العلمية والشعبية في عصرهم، وكان من أدباء اللغة الفارسية و رموزها وأساتذتها البارعين، وطبيبًا نطاسيًّا، اشتهر كثيرٌ من قصص حذقه في الطب ومعالجة الأمراض المستعصية، على ألسنة العامة والخاصة. وكان معروفًا بالحرب الشعواء على البدع و الخرافات، والتقاليد الباطلة السائدة في المجتمع الإسلامي من جراء جوار الهندوس وغيرهم من شرائح البلاد الهندية، رزقه الله تعالى ثلاثة أبناء: الشيخ الطبيب إلهي بخش – الذي أسس المدرسة الإسلامية المعروفة بإحياء العلوم/مبارك فور قبل قرن أو أكثر، ولاتزال المدرسة ناشطة في تقديم الخدمات الدينية والاجتماعية في المنطقة، وكان لها صوت وصيت ومكانة بازرة في مجالها بين شقيقاتها من المؤسسات التعليمية الدينية الإسلامية- وثانيهم: الحافظ خدا بخش، والثالث: الحاج نعمت الله رحمهم الله جميعًا.

مولده:

ولد في عام ١٩٤١م في حي «فوره دلهن» من قصبة «مباركفور»، بمديرية «أعظم كره» من ولاية «أترابراديش»، الهند، في بيت ورع وزهد وتقوى وعلم وفضل كما أشرنا إليه سابقًا[١].

دراسته الابتدائية:

قرأ القرآن الكريم في بيته ثم تلقى دراسته الابتدائية – روضة الأطفال وما بعدها- في مدرسة دار التعليم بمباركفور، وفرغ منها عام ١٩٥٠م، ليلتحق عام ١٩٥١م بالجامعة العربية إحياء العلوم/ مباركفور، في الصف العربي الأول. وكان من أساتذته ومشايخه في المدرسة كل من الشيخ المفتي محمد يس المباركفوري (قرأ عليه ميزان ومنشعب في الصرف، و«الهداية» في الفقه)، والشيخ بشير أحمد المباركفوري (قرأ عليه شرح الجامي في النحو، والقطبي في المنطق)، والشيخ محمد يحيى الرسول فوري (قرأ عليه هديه سعيديه، وميبذي في الفلسفة، ترجمة معاني القرآن الكريم)، و الشيخ محمد عثمان ساحر المباركفوري (قرأ عليه القراءة الرشيدة، ونفحة العرب، والمقامات الحريرية، وديوان المتنبئ في الأدب العربي)، والشيخ شمس الدين الحسيني(قرأ عليه علم الصيغة في الصرف)، والمقرئ ظهير الدين المعروفي (قرأ عليه فصول أكبري في الصرف).

بعد إنهاء دراسته هذه في المدرسة العربية إحياء العلوم/ مبارك فورحرص حضرة الوالد على مواصلة الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند في ١٨/١٠/١٤٧٦هـ في الصف السابع العربي- قبل مرحلة التخرج بعام - فلم يتمكن من الرواية عن شيخ الإسلام حسين أحمد المدني رحمه الله-.

وكان من أساتذته في الجامعة علماء كبار و فحول العلم والمعرفة أبرزهم: الشيخ الشريف فخر الدين المرا دآبادي (قرأ عليه صحيح البخاري)، والشيخ العلامة إبراهيم البلياوي (قرأ عليه صحيح مسلم وجامع الترمذي)، والشيخ سيد فخر الحسن (قرأ عليه سنن أبي داود)، والشيخ ظهور أحمد (قرأ عليه سنن ابن ماجه، والموطأ برواية يحي الليثي)، و الشيخ بشير أحمد البلند شهري (قرأ عليه سنن النسائي)، والشيخ جليل أحمد (قرأ عليه الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني)، والشيخ عبد الأحد (قرأ عليه شمائل الترمذي)، والشيخ سيد حسن (قرأ عليه شرح معاني الآثار)، والشيخ حسين أحمد المعروف بملا بيهاري (قرأ عليه سنن ابن ماجه). وتخرج في دورة الحديث الشريف على هؤلاء المشايخ الكبار في هذه الدار العريقة عام ١٩٥٨م، وكان عدد الطلاب في هذه الدورة (١٦٩) طالبًا، ومن أبرز زملائه فيها كبار أساتذة الدار أمثال: فضيلة الشيخ رياست علي البجنوري رحمه الله، والشيخ محمد أحمد الفيض آبادي – مدير شؤون التعليم بالجامعة سابقًا- والشيخ محمد مسلم البمهوري – رئيس الجامعة الرشيدية بمهور، أعظم كراه - والشيخ رشيد الدين الفيض آبادي – رئيس الجامعة القاسمية شاهي مراد آباد-، والشيخ خالد كمال القاضي المباركفوري- مبعوث وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية إلى نيوزيلندا- والشيخ أحرار الحق رحمه الله – وآخرون يطول ذكرهم.

وحاز خلال دراسته في الجامعة أرقامًا عاليةً في الاختبارات كلها: ففي المرحلة التي تسبق دورة الحديث الشريف، والتي تخرج فيها عام ١٣٧٧هـ، كانت درجاته في المقررات الدراسية كالتالي: مشكاة المصابيح: ٤٨، وتفسير الجلالين ٤٨، ومبيذي ٤٣، والفوز الكبير ٤٦، ونخبة الفكر٤٨، وشرح العقائد النسفية ٤٢.

وأما دورة الحديث الشريف فكانت درجاته في المقررات الدراسية على النحو التالي: صحيح البخاري: ٥٢، وصحيح مسلم ٤٥، وجامع الترمذي:٥٠، وسنن أبي داود ٥٠، وسنن النسائي ٤٨ ، وسنن ابن ماجه:٥٠، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٥٣، وشمائل الترمذي:٥٠، و الموطأ برواية يحي الليثي:٥٠، والموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني ٥٠، والفوائد المكية ٤٤، والتجويد والقراءات٥٠.

تخرج عام ١٩٥٨م في دروة الحديث الشريف بالجامعة ليعود إلى وطنه «مبارك فور» في الإجازة الطويلة، فأشار عليه أحد أعمامه في العائلة وهو الشيخ الطبيب عبد الباري بأن يواصل دراسته في قسم العلوم والفنون بالجامعة نفسها، فعاد أدراجه إلى دار العلوم/ديوبند، وأمضى بها سنتين حتى تخرج في قسم الفنون وعاد إلى البيت عام ١٩٦٠م. وكانت أرقامه في المقررات الدراسية في الامتحان السنوي في هذا القسم كالتالي: الهداية-الجزءان الأخيران- ٤١، وتفسير البيضاوي – سورة البقرة- ٤٨، والتوضيح والتلويح:٤٦، والسراجية:٤٦، والتصريح: ٣٩، وبست باب: ٤٥، وشرح الجغميني:٤٣.

عمله في مجال التدريس:

وكـان يحـرص هـو وعائلتـه عـلى أن ينـضم إلى سـلك التـدريس والتعلـيم دون أن يحـترف حرفـة و يكسب عيشه بالتجارة.

وكانــت عائلتــه تمــر بالمرحلــة الاقتــصادية العصيبة يومذاك، وكان هو أكبر أولاد أبيه، ولكنه – والـده الـذي عـرف بقرى الـضيوف وخاصـة العلـماء والمشايخ الواردين إلى القصبة وحولها- حرص على أن يكب ابنه البار على التدريس والتعليم، فصرفه إلى هذا المجال، وكانت المدرسة العربية إحياء العلوم/ مبـاركفور يومهـا في حاجـة إلى مـدرس كفـء، و تـم ترشيحه للتـدريس فيهـا فانـصرف إليـه لايلـوي عـلى شيء، وذلـك عـام ١٩٦٠م، وبجهـوده وجهـاده في مجال التدريس وبذل سواد ليله وبياض نهاره لقيت دروسه قبولًا عامًّا وشعبيةً واسعةً، ولم يدع شيئًا من المقـررات الدراسـية في الموضـوعات المختلفـة في المدرسة إلا قام بتدريسها. واستمر على ذلك نحو (١٦) عامًا حتى عام ١٩٧٦م.

أبرز تلامذته في مدرسة إحياء العلوم:

وكانت المدرسة العربية إحياء العلوم يومذاك غطـى صـيتها الآفـاق والأكنـاف، وسـار باسـمه الركبـان، ونـسل إليهـا الطـلاب مـن كـل صـوب و حدب، وكانت تلك الأيام أيامًا مشهودة، وصفحةً مـشرقةً لامعـةً مـن تاريخهـا، فاسـتفاد منـه الآلاف المؤلفة من الطلاب و عطاشى الدراسة الدينية، وفيما يلي أسماء بعضهم:

١. الــشيخ توفيــق أحمــد رئــيس الجامعــة الحسينية/ جون فور.

٢. الـشيخ فيـاض أحمد رئيس مدرسـة مفتـاح العلوم بهيمندي سابقًا.

٣. الـشيخ إعجـاز أحمـد الأعظمـي، مؤسـس مدرسة سراج العلوم/جهبرا، مئو.

٤. الـشيخ أبـو بكـر الغـازي فـوري رحمـه الله صاحب المؤلفات القيمة.

٥. الشيخ إنعام الحق مبعوث المملكة العربية السعودية إلى «لومي» غرب إفريقيا.

٦. الـشيخ نـسيم أحمـد البـاره بنكـوي، أسـتاذ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند.

وكثيرون آخرون.

عمله في مجال الإفتاء:

كانـت المدرسـة العربيـة إحيـاء العلـوم/مبـارك فـور أيامئـذ تـشكل مرجعيـةً في الفقـه و الفتـاوى، وكانـت يتـولى إفتاءهـا المفتـي المحنـك الـشيخ يـس المبـاركفوري، فبـدأ يكتـب الـردود عـلى الأسـئلة الـواردة إليها برعاية شيخه المفتي محمد يس، وكـان ينـوب عنـه حـين غيابـه عـن المدرسـة في الإفتـاء، واستمر على ذلك نحو (١٣) عامًا اعتبارًا من عام ١٩٦٣م حتـى عـام ١٩٧٦م، و أصـدر خـلال هـذه المدة الطويلة ما لايحصى من الفتاوى والردود على الأسئلة الدينية الموجهة إليه.

خصائص تدريسه:

كان حضرة الوالد مدرسًا كفئًا قديرًا على شرح المـادة التي يدرسها بأسلوب سهل ميسور، يخاطب العقل والقلب، وينفذ إلى الفؤاد، فكأنه كـان يصب العلم صبًّا في عقول طلّابه وتلامذته، ويعرف نفسية الطالب على اختلاف مستواه التحصيلي–ويحدثه على

قدر عقله و فهمه، يقول أحد تلامذته وهو الكاتب الإسلامي الشهير الشيخ إعجاز أحمد الأعظمي رحمه الله:

«كان الشيخ جميل أحمد المباركفوري هينًا لينًا سليم دواعي الصدر، على غاية من السذاجة والكفاءة التدريسية، ومن المدرسين الشباب اليفعة، يشرح الدرس شرحًا رائعًا، كان يحمل كفاءة تدريسية على ذروتها، وعلى صلة وطيدة وحب عظيم للغة العربية، كان من دأبه في إعداد الدرس أن يكتب الكلمات المشكلة على كراسته هو، ويشير إلى معناها باللغة الأردية، ومادتها واشتقاقها، وإفرادها وجمعها، وتذكيرها وتانيثها، والمعاني التي قد تدل عليها مختلف مشتقاتها وتفاصيل أخرى، ثم يمليها على الطلاب عن ظهر القلب، هكذا درَّسنا الجزءين من كتاب «القراءة الرشيدة». وكان يستفسر الطلاب عن إعراب الكلمات الواردة في نص الكتاب، وكان يترجم النص ترجمةً رائعةً دقيقةً لا ترجمة حرفية بحتة قد تعوق دون فهم الطالب المراد من النص واستيعابه، ولا ترجمة حرة مطلقة لايستطيع الطالب من تمييز الكلمات التي ترجمها إلى الأردية من غيرها. فتتجلى ترجمة كل كلمة وردت في النص لوحدها، ويتضح المراد بالنص، كما كان يعيد الترجمة مرتين أو ثلاث مرات حتى كنا نحفظ الدرس ونستوعبه خلال شرحه له، لقد استفدت بدورسه هذه كثيرًا، وكان يوم الخميس مختصًّا بالترجمة من الأردية إلى العربية، وكان زملائي في الدراسة ممن درسوا الصف العربي السابق في هذه المدرسة – قد مرنت أيديهم على الترجمة، فيهون عليهم الترجمة، ولايستصعبونها على الإطلاق». (حكاية هستي- ترجمة شخصية- للشيخ إعجاز أحمد الأعظمي، ص٧٠).

ويضيف الشيخ الأعظمي قائلًا:

«كان الشيخ محمد مسلم والشيخ جميل أحمد المباركفوري من الأساتذة الشباب الذين نالوا شعبيةً واسعةً بين الطلاب أيامئذ، رغم أنهما كانا يختلفان في طبيعتهما ومزاجهما، وأسلوب تدريسهما وتربيتهما كل الاختلاف، غير أن الطلاب كانوا مستأنسين بهما جميعًا، وكانا كلاهما على غاية من الرفق بالطلاب والشفقة عليهم، وكان أحدهما يجمع إلى الشفقة والرفق الجلال والمهابة، وأما الآخر فكان يجمع إلى الشفقة والرفق الجمال. وهذه السنة لم يوكل شيء من مقرراتنا الدراسية إلى الشيخ محمد مسلم، مما آسفنا كثيرًا، وأما الشيخ جميل أحمد المباركفوري فقد وكل إليه كتابان من مقرراتنا الدراسية، ففرحنا جدًّا، وكان الشيخ المباركفوري يدرسنا الكافية – في النحو- وشرح التهذيب -في المنطق-، وكان الشيخ يختلف عن غيره من الأساتذة في أسلوب تدريسه، ونمط عرضه وشرحه للدروس، فكان يحضِّر القدر الذي يريد شرحه من الدرس تحضيرًا جيدًا رائعًا حتى يرسخ في ذهنه، ويزوّره في نفسه تزويرًا حسنًا، وكان له تعليقات وجيزة على نسخة الكتاب، التي يقرأ فيها، و إشارات بسيطة تعينه على الاستحضار، يدخل الفصل، ويأخذ مكانه منه، و يجلس الطلاب بأدب فيأمر بعض الطلاب بقراءة النص، فيقرأه، وينبِّه على الأخطاء التي يقع فيها القارئ أثناء القراءة بصورةٍ عاجلةٍ، قلما كان يعبس، ثم يبدأ شرح

الدرس بصورةٍ مرتبةٍ مرصعةٍ ترصيع الجواهر في التاج، وبنكهةٍ خاصةٍ، فيشرح كل شيء بأحسن أسلوب وأيسره وأنفذه إلى القلوب، وكان يشرح كل شيء ثلاث مرات حتى يرسخ في ذهب الطالب ويعيه كل الوعي». (حكاية هستي،ص ٩١).

موقفه من تلامذته:

كان كثير الرفق والشفقة والعطف على تلامذته، ولايخاطبهم بأسلوب يوحي إلى الازدراء بهم أو النيل منهم أو الحط من شأنهم، يحكي تلامذته قصص رفقه وعطفه عليهم بكل حب وشغف، فيقول الشيخ إعجاز الأعظمي رحمه الله:

«كان درس الكافية في الحصة الأخيرة الصباحية، وأما درس كتاب شرح التهذيب فكان في الحصة الأخيرة المسائية، وكانت الحصص الدراسية في الصيف صباحًا فحسب، و تُعلَّق الدراسة في الفترة المسائية. وذات مرة استشعر الشيخ المباركفوري ضعفَ الطلاب في كتاب «شرح التهذيب»، ويرجع ذلك إلى أنه كتاب في المنطق، علاوةً على زهد الطلاب في هذه المادة، أضف إلى ذلك أن كتاب التهذيب، وشرحه: شرح التهذيب من الكتب الشائكة العويصة على أفهام الطلاب ونفسيتهم، وحقًّا استشعر الشيخ ذلك، فقال لنا ذات يوم: الدراسة في المدرسة معلقة في الفترة المسائية، فهلا تزورونني في المساء قبل صلاة العصر بساعةٍ واحدةٍ، سأعيد شرح ما تم شرحه من كتاب شرح التهذيب لكم حتى تستوعبوه. ومما لاشك أن إعادة شرح الكتاب الذي تم شرحه في الحصص الدراسية في فترة الدراسة، من الصعوبة بمكان، ولكن الشيخ المباركفوري كان يحمل من المواصفات والكفاءات ما جعلنا نهتز فرحًا بهذا القرار المنعش النابع عن حبه لتلامذته وحرصه على إخراجهم علماء بمعنى الكلمة- فضلًا عن الملل والكآبة منه، وكان بيت الشيخ على مسافة من مقر المدرسة، في حي «فوره دلهن»، شمال قصبة مباركفور، وكانت الأرض تفح رمضاؤها نارًا، وكان علينا أن نتجاوز الحي حتى نصل إلى حديقة الأنبج التي كان يملكها أسرة الشيخ؛ ولكن الذي هوَّن علينا تجاوز هذه العقبات ما كنا نلمس من الشيخ المباركفوري من الحب لتلاميذه وحرصه على تزويدهم بما يستطيع تزويدهم به؛ بل فوق ما يستطيع من العلوم النافعة، ولو على حساب راحته وأعماله الروتينية في بيته، إضافةً إلى أن الحديقة كانت واسعة الأرجاء مترامية الأطراف، كثيرة الأشجار، وافرة الأثمار، حلوة المياه. فاجتنينا ثمرتين معًا: استفدنا من الشيخ العلمَ والمعرفةَ، واستفدنا من الحديقة التي كانت ظلالها دانية، وقطوفها ذللت تذليلًا. فكل ذلك كان يحدو بنا إلى هذه الحديقة، فجمع بين الدراسة والنزهة الرائعة، حتى انقضى شهر كامل كلمح بالبصر، واستظهرنا خلاله الجزء الخاص بالمقدمة من كتاب شرح التهذيب، مما نفعنا كثيرًا في الامتحانات السنوية». (حكاية هستي، ص٩٢).

دراسته في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة:

وكانت تراوده أمنية زيارة الحرمين الشريفين وقضاء ما يسعه قضاؤه من الأوقات في رحابهما منذ زمن غير يسير، و «هل في أماني المسلم أكبر من أن

يـرى تلـك المـشاهد، ويقـف عـلى تلـك العتبـات»، وينزل بمهوى القلوب، وموطن الحب، ومستراح الأرواح و المـوطن الأول لكـل مـسلم في مـشارق الأرض ومغاربها. فأرسل طلبًا للالتحاق بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ولم يحظ طلبه بـالقبول بحجـة تجاوزه المرحلـة العمريـة المحـددة لقبـول الطلاب الوافدين من خارج الدولة، ولكن لم تمتد إليـه يـد اليـأس والقنـوط، فأعـاد تقـديم الطلـب إلى الجامعة في السنة التالية وبعدها حتى مضى على ذلك ست أو سبع سنوات تباعًا لايفوته تقديم الطلب خلال هذه المدة، وأخيرًا قدّم طلبه للالتحاق بيد أحد أعز تلامذته وهـو الـشيخ إنعام الحق المحمد آبادي، فعرض الشيخ إنعام الحق طلبه على الشيخ ابـن بـاز رحمه الله، وأطلع على إلحاح الطالب على القبـول ورد الطلـب مـن قبـل إدارة الجامعـة بحجـة تجاوزه المرحلة العمرية للقبول، فذيَّلَ طلبه بالموافقة عــلى القبــول، نظــرًا إلى حرصــه وشــغفه بــالعلم والدراسة، وعليه تمّ قبوله للدراسة في كلية الشريعة بها عام ١٩٧٦م، وتخرّج منها عام ١٩٧٩م بدرجات عليا.

وفي أعقـاب تخرّجـه مـن الجامعـة بحـث عـن فرصــة الــدعوة والتــدريس، وكانــت دارالإفتــاء بالريـاض بالمملكـة العربيـة الـسعودية تقـوم بتعيـين الخـريجين في الجامعـة في مختلـف الـبلاد الإسـلامية وغيرهــا لتعلـيم اللغــة العربيــة والعلــوم الدينيــة والدعوة والإرشاد فيها، فخرج اسمه في المبتعثين إلى دولـة إفريقيـا الوسـطى[٢]، وجلس مـدة سـتة أشـهر ينتظـر خـتم التأشـيرة للـسفر إليهـا، ولم تكـن دولـة مرغوبًا فيها مـن قبـل الخـريجين الـذين يـتم ابتعـاثهم للـدعوة والإرشـاد إليهـا، وتـأخرت إجـراءات خـتم التأشيرة للدخول إليها، و في نهاية المطاف تم تحويله مــن إفريقيــا الوســطى إلى بلـــدة إفريقيـــةٍ متخلفـــةٍ اقتـصاديًّا تـشكو شـح الإمكانيـات المعيـشية، وهـي دولـة «النيجـر»[٣] (Niger)، وقلما يرغـب الـدعاة في التوجه إليهـا، ولكنه رضي بكـل هـذه العـلات؛ لأنـه جعـل نـصب عينيـه الـدعوة إلى الله تعـالى وإرشـاد النـاس إلى توجيهـات الـدين الحنيـف حيـث كـان، بغـض النظـر عـن تـوفر التـسهيلات المعيـشية مـن عدمه.

وفعلًا تـم ختم التأشيرة لـه للسفر إلى النيجر، فعاد إلى الهند استعدادًا للرحيل إليها، وأمضى شهرًا أو أقـل أو أكثـر ثـم توجّـه إليهـا عـن طريـق نيجريـا- دولـة متأخمـة لهـا-، وبالتحديـد عـن طريـق مـدينتها الشمالية «كـانو»، حيث كانـت محطتهـا الأولى في هـذه الرحلـة، وكـان عليـه أن ينتظـر في «كـانو» ثلاثـة أيـام ولياليها ترقبًا للرحلة المتجهة إلى « نيامي» عاصمة النيجر، فآثر السفر بالسيارة على السفر بالطائرة التي قطعت لـه التذكرة، فقضى ثلاثة أيام في السفر إليها بـرًّا، وكانـت الـشقة إليهـا بعيـدة، والرحلـة قاسـية لايـصبر عليهـا إلا أولـو العـزم مـن الرجـال، حتـى وصـل إلى مقـر الـسفارة الـسعودية في «نيـامي»، في طريـق لايألفـه وبلـد لايعرفـه، ولايعـرف أهلـه، ولايعـرف طـاقم الـسفارة ولايعرفونـه، فمكـث في السفارة مدة من الزمان ينتظر صدور تأشيرة العمل في الـبلاد مـن الـسلطات المحليـة، حتـى طـال بـه الانتظار ومضى نحو ستة أشهر. والذي كان يرجع

إليه تأجيل إصدار تأشيرة العمل بالنيجر أن السفير السعودي آنذاك كان يصلي الجمعة في بعض الجوامع، وينثر الفلوس والأموال على المحتاجين والبائسين الذين كانوا يحفّون به ويتهافتون عليه عقب الصلاة، وكانت الحكومة النيجرية تعد ذلك مساسًا من عزها وكرامتها، وطالما نصحته بعدم العود إليه، وتقديم المعونات والمساعدات المالية – إذا كان يرغب فيه- عن طريق الجهات المختصة لتوزيع المعونات والمساعدات المالية والعينية في البلاد، إلا أن ذلك كله لم يحرك ساكنًا في سعادة السفير المعين حينئذ. فكانت السلطات المحلية تتحرّج من التعامل مع السفارة السعودية، وتماطل في الأمور الخاصة بها، وعاد أمر إصدار تأشيرة العمل لحضرة والدي فريسةً سائغةً لهذا التناوش بين السفارة والسلطات المحلية.

ومضى على ذلك ستة أشهر فارتآى السفير السعودي آنذاك تحويله إلى بلد مجاور وهو «كوتونو» بدولة (بنين)[٤].

فسافر إليها برًّا بسيارة أشبه ما تكون شاحنة، وفيها كراسي لاعيب فيها إلا أنها تكسر ظهر القاعد، و تطير النوم من عيون النعسان، في رحلة شاقة طويلة، استغرقت يومًا وليلةً حتى وصل إلى «كوتونو»، وكانت رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة تدير بها مركزًا يتبعه مكتبة كبيرة ومستشفى عام، وتكفل الرابطة كافة نفقات هذا المركز، والقائمون عليها كانوا يعيشون في المركز فسادًا ماليًّا، ويبيعون شحنات الأدوية اللازمة للمستشفى دون أن يستفيد منها المرضى الزوار، وكان على الوالد رحمه الله الإشراف على المكتبة والمستشفى بجانب الدعوة الإسلامية وتعليم اللغة العربية والعلوم الدينية، فلما لقي مدير المركز حاملا معه رسالةً من السفير السعودي في «النيجر» و بتعيينه مشرفًا على المركز، وجد في نفسه حرجًا شديدًا من ذلك؛ فإنه خاف أن يكشف الفضائح المالية التي كان والغًا فيها من رأسه إلى أخمص قدميه ،فرأى شرًا مستطيرا لنفسه، فتظاهر بالترحيب والتكريم، وخصص له غرفةً يعيش فيها، حتى يتم استصدار تاشيرة العمل في «بنين»، وفعلًا قدّم الوالد الأوراق اللازمة للتأشيرة بواسطة مدير المركز، وبعد اللتي واللتيا تم ختم التأشيرة على الجواز، ولم يكن يتوقع مدير المركز ذلك؛ فإنه كان يسعى جاهدًا في إقامة العراقيل والعقبات في إصدار التأشيرة من وراء الكواليس، وينسج الدسائس ضده، فأسرَّ إلى وزارة الداخلية بأنه رجل غير مرغوب فيه، ولايحبذ بقاءه في المركز، فطلبت الوزارة حضرة الوالد رحمه الله إلى مكتبها، ثلاث عشرة مرة، وكلَّ مرة يسألونه عما جاء به إلى «بنين»، وعن حياته، ونشاطاته في حياته السابقة، وذلك عن طريق مترجم فرنسي ينقل كلامهم إلى العربية التي كان الوالد يتقنها، دون الفرنسية، وأخيرًا نجحت مؤامرات مدير المركز وتم إلغاء تأشيرة العمل في «بنين»، مع إنذاره بضرورة مغادرة البلاد خلال ثلاثة أيام وإلا سيتحمّل هو مغبّته، وسيقومون بجلائه قهرًا وطرده من حدود الدولة.

فدارت الأرض به في بلد لايعرفه أهله، وأرض ليس له فيها أنيس بعد أن قضى فيها نحو ستة أشهر خاوي البطن في كثير من الأيام، ينتظر

الفرج من الله تعالى بصدور تأشيرة العمل في البلاد، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة على يد بعض أهلها إلى الشيخ عبد العزيز – الملحق الديني بسفارة المملكة العربية السعودية في «لاغوس» من «نيجيريا» دولة مجاورة لدولة «بنين»، وشرح له فيها أوضاعه المؤسفه ومعاناته الشديدة، فَرَقَّ له قلب الملحق الديني، وعمل رسالتين له: رسالة إلى سفير المملكة في دولة النيجر، ورسالة إلى سفارة «نيجيريا» في «النيجر» لتصدر له تأشيرة الدخول إلى نيجيريا، فلما وصل الوسيط إلى «البنين» بالرسالتين عاد حضرة الوالد إلى «النيجر» مرة أخرى، واستقل سيارة نقل تشبه شاحنة مقاعدها من خشب غليظ يؤذي الجالس عليها، ولا حيلة له غير ذلك حتى يغادر حدود «بنين» في المدة المسموحة له. و وصل إلى السفارة السعودية في النيجر، ولقي سفيرها الذي أرسله إلى «بنين»، فاستغرب وسأله عن سبب عودته منها فشرح له الوالد الوضع المأساوي، وعرض عليه الرسالتين، فقال له السفير: لن نتحمل نفقة السفر إلى «نيجيريا»، و أرسل جوازه مع رسالة منه إلى سفارة «نيجيريا»، وفعلا تم ختم تأشيرة الدخول إلى نيجيريا، فسافر منها إلى «نيجيريا» جوًّا على نفقته هو بعد أن وصل إليه راتب شهر أو شهرين بصورة شيك من دارالإفتاء بالرياض، و بمساعدة من السفارة تمّ صرفها وشراء تذكرة الطائرة بها فغادرها إلى «نيجيريا» و وصل إلى الملحق الديني في «لاغوس» – عاصمة «نيجيريا» يومذاك- في الوقت الذي كان الشيخ عبد العزيز الزهراني قد سافر إلى السعودية في إجازة عيد الأضحى وخلفه في المنصب القائم بأعماله، فدخل عليه وشرح له الوضع، فرحّب به، وسمح له بالنزول في الملحق الديني حتى يعود الشيخ عبد العزيز من السعودية.

وذات يوم دخل على الملحق الديني السعودي بعض مسؤولي جامعة مدينة «ألورين» النيجيرية، وطلبوا منه أن يسمح لحضرة الوالد بزيارة جامعتهم، فرضي بذلك، فخرج معهم، وزار الجامعة، و هي جامعة حكومية في المدينة واسعة الأرجاء مترامية الأكناف، بها مدرسون وأساتذة كثيرون، و جلس معهم أيامًا ودرَّس فيها، فأُعجِب القائمون عليها بتدريسه كل الإعجاب، وعرضوا عليه التدريس في جامعتهم، على أن يوفروا له السكن وكافة التسهيلات التي توفرها الجامعات الحكومية في البلاد، فقال لهم: الأمر يرجع إلى فضيلة الملحق الديني السعودي الشيخ عبد العزيز، ولامانع عندي إن رضي الشيخ بتعييني في الجامعة. كما عرضت عليه جامعات أخرى في البلاد التدريس فيها، ويقول لهم حضرة الوالد: الأمر يرجع إلى فضيلة المحلق الديني السعودي. وبعد ما قضى أيامًا طيبة معهم عاد إلى مقر الملحق الديني وجلس فيه ينتظر عودة الشيخ عبد العزيز الزهراني.

وفي نهاية الأمر تم تعيينه في مدرسة دارالقرآن بلاغوس في منطقة متخلفة تشحّ فيها التسهيلات المعيشية، فالشوارع وهاد و حفر، تغمرها في موسم الأمطار، ومياه الشرب لاسبيل إليها إلا بالشراء، و الكهرباء لاتزورهم إلا لمامًا، ولكن الشيخ عبد العزيز آثر أن يكون حضرة الوالد بجواره بعد ما سمع معاناته ومتاعبه. وكان الدعاة المبعوثون من

السعودية لايرضون بالبقاء في هذه المنطقة نظرًا لأوضاعها المزرية الشاقة.

أعماله وخدماته في نيجيريا:

١. مدرسة دارالقرآن الكريم:

كان يديرها الحاج إمام شعيب رحمه الله، في مسجد بيته، الذي لايسع إلا بعض الصفوف الصغيرة الدارسية، و هي أشبه ما يكون بكتّاب ديني. بدأ حضرة الوالد عمله فيها، وأفنى سواد ليله وبياض نهاره في ترقيتها وتطويرها حتى ضاق المسجد عن الطلاب، فتحوّلت إلى قطعة من الأرض بإزاء بيت الحاج شعيب، أقام عليها أربعة فصول دراسية.

ثم توسّعت المدرسة وازداد الإقبال عليها حتى اضطروا إلى نقلها إلى مكان آخر أوسع من السابق، في مستودع للحاج شعيب، تمّ تجهيزه وتحويله إلى مبنى خاص بالمدرسة. وارتفع عدد الطلاب فيها في الأزمنة الأخيرة إلى (٢٥٠) طالبًا، وتخرج على يده طلاب كثيرون تفرقوا في المجالات العلمية المختلفة في المراحل اللاحقة، منهم: الدكتور/ عبد الرحيم الرفاعي الذي تعلم اللغة العربية والإنجليزية، ثم التحق بجامعة في الدمام ودرس علمَ الكمبيوتر وأتقنه حتى عيِّن أستاذًا فيها لمدة سنتين، ثم تحوّل إلى أمريكا بعد ما جاوز بعض الاختبارات. ومنهم: الطبيب عبد الغفار وهو طبيب في أمريكا، وكان يزور الوالد رحمه الله أحيانًا، والطبيب/بشير الذي حصل على الدكتوراة في الطب، وعبد الله إسلام الذي التحق بجامعة الأزهر وواصل دراسته العليا، والمعلم عبد الفتاح و كثيرون غيرهم يطول ذكرهم.

٢. بجانب تدريسه كان يتولى إمامة المسجد، وخطابة الجمع والأعياد بعد أن لم تكن تشهد المنطقة صلاة الجمعة والعيدين من قبل، وكان الناس يلقون الألاقي في التوجه إلى مكان بعيد لأداء هذه الصلوات. وكان يلقي خطبات الجمعة والعيدين باللغة العربية وتنقل إلى اللغة المحلية و الإنجليزية.

٣. كانت له حلقة تفسير القرآن الكريم يتم نقله إلى اللغة المحلية والإنجليزية.

٤. وكانت له جولات وصولات دعوية توجيهية في أكناف المدينة وما جاورها من المناطق القريبة و البعيدة.

٥. أنشأ – بمشاركة من الشيخ عبد القيوم مبعوث رابطة العالم الإسلامي بمكة – شبكة الكتاتيب الدينية في الجزر المجاورة لمدينة «لاغوس»، فكان يتجول فيها بصورة دورية مشيًا على الأقدام في معظم الأحوال، و يتفقّدها ويلبّي حاجاتها وعلى حسابه في كثير من الأحيان. والذي دفعهما إلى إقامة هذه الكتاتيب ما كانت تشهده هذه المنطقة وخاصة الجزر التابعة لمدينة «لاغوس» من النشاطات التبشيرية الواسعة النطاق، فقد كان المبشرون النصارى يجوبون البلاد طولًا وعرضًا، يروجون خرافاتهم وبدعهم ومبادئهم، يحملون شعارات الخدمة الاجتماعية والطبية، وتدور المؤامرات على قدم وساق لتحويل المنقطة بأسرها منطقةً نصرانيةً غالبيةً، ولضرب الإسلام وتقزيمه، فثارت فيهما الغيرة الدينية وقاما بمقاومة هذه

المكائد والدسائس، وكشف عوارها وبوارها بما يملكان من نفس ومال، وبما يقدمه بعض أصحاب الخير من المعونات والمساعدات.

٦. إسلام عدد من النصارى على يده:

خلال نشاطاته الدعوية في «لاغوس» وضواحيها كان يشرح العقيدة الإسلامية بصفة عامة و عقيدته في المسيح عليه السلام؛ فقد كان للنصارى في هذه المنطقة كنائس ونشاطات وكثافة سكانية، ولايخلو شارع من شوارع المدينة من كنيسة لهم، كل ذلك دون أن يخاف في الله تعالى لومة لائم أو غضب الناس. فتقدم عدد من النصارى وأسلموا على يديه، وتابوا من النصرانية، وحسن إسلامهم. وكان حضرة الوالد يعد ذلك ذخرًا له ومنجاةً في الآخرة بإذن الله تعالى.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة إلى أن هذه السبيل– سبيل الدعوة إلى الله تعالى– محفوفة بالأشواك، وتعترضها العقبات، ويتعرض الدعاة للأخطار والأضرار في النفس والمال. وهذه الجهود التي قام بها حضرة الوالد رحمه الله في هذه المنطقة المتخلفة دينيًّا إذا كان لها وقع طيب بعيد المدى في قلوب مسلمي هذه المنطقة؛ فقد كان أعداء الإسلام يتربصون به وبأعماله ونشاطاته الدينية التي أقضت مضاجعهم الدوائرَ، وتعرض حضرة الوالد رحمه الله، غير مرة لهجوم شرس من هذه العناصر علنًا وجهرًا حينًا، وفي الستار أحيانًا كثيرةً، ولكنه ما ضعف وما استكان. وذات مرة تعرض للاعتداء من قبل بعض قطاع الطريق؛ ولكن الله تعالى سلمه. وذات يوم كان يعود من مطار «لاغوس» إلى بيته القريب منه، وركب سيارة «تاكسي»، وبداخلها رجل في صورة مسافر، وفي طريقه إلى بيته، أوقف السائق سيارته وتظاهر أن المسافر الراكب بجنبه يريد النزول من السيارة، فأمر حضرةَ الوالد لينزل من السيارة حتى يتمكن المسافر الآخرُ من النزول منها، فما إن أخرج إحدى رجليه من السيارة حتى حرك السائق السيارة، فوقع طريحًا على الأرض وإحدى رجليه في السيارة، فسحبته طويلا على الشارع، فأصيب إصابات عنيفة وكدمات كثيرة، وحمله بعض المارة إلى المستشفى و مكث بها نحو شهر، دون أن يشعر به أحدًا من العائلة في الهند.

صلته بالمدارس والمعاهد الدينية:

ظل طوال حياته على صلة وطيدة بالمدارس والمعاهد الدينية، رئيسًا لها أو عضوًا من أعضاء مجلسها الاستشاري، أو مشرفًا عليها أو محبا لها، ومن أبرز هذه المعاهد:

الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند:

كان من أبنائها وخريجيها، تلقى العلم على كبار علمائها وفحولها أمثال الشيخ العلامة إبراهيم البلياوي، والشيخ فخر الدين المراد آبادي، كما سبق تفصيله، وكان يكثر من ذكره، يقص أحواله و أعماله ونشاطاته وقصصه على الناس، وعمل كراسات ضخمة لأماليه في دروس البخاري، كما كان يثني على شيخ الإسلام حسين أحمد المدني كثيرًا، ويترقرق الدمع في عينه حين يأتي على ذكره، و إن لم يكن أخذ منه العلم بصورة انتظامية فقد كان في المرحلة السابقة على دورة الحديث التي كان يدرس الشيخ المدني رحمه الله طلابها في الجامعة، ولكن كان

على قربى دانية منه، يزوره ويستقي من منهله العذب الفياض ما قدر له.

وكان على حب عظيم لشيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، ويكثر من ذكره، ولايسميه باسمه، فطالما سمعته يقول: كان شيخ الحديث رحمه الله يقول كذا وكذا. ولم أسمع يومًا سمّاه باسمه احترامًا وتبجيلًا وإجلالًا له. وكنت يومئذ صغير السن في المرحلة الابتدائية من الدراسة ولم يكن طرقت سمعي أسماءُ هؤلاء العظماء الفحول، فكنت أتساءله: من هوشيخ الحديث هذا؟ فيشرح لي. ومن هنا وقع حب هؤلاء واحترامهم في قلبي، وتجذر في نفسي بما لم تستطع العواصف الهوجاء زعزعة ثقتي بهم واحترامي لهم لاحقًا.

وكان حريصًا على زيارة «ديوبند»، وعلمائها فلايدع فرصة إلا استغلها وزار مَن فيها من زملائه في الدراسة وغيرهم، وكلما نزل في «دهلي» عائدًا من نيجيريا – مقر عمله- أو متجهًا إليها و وجد فرصة ولو قصيرة لزيارة ديوبند، لم يدعها تفوته، وخاصة بعد تعيين كاتب هذه السطور مدرسًا فيها كان يكثر من زيارتها والاجتماع بأساتذتها الكبار أمثال الشيخ رياست علي البجنوري رحمه الله حين كان على قيد الحياة، والشيخ قمر الدين حفظه الله والشيخ نعمت الله وغيرهم من الأساتذة الكبار وآخرين من الأساتذة الصغار والموظفين.

الجامعة العربية إحياء العلوم:

وهي المدرسة التي بدأ فيها دراسته العربية وقضى فيها سنوات عدة دراسةً وتدريسًا، و لما عاد متقاعدًا من وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد إلى مسقط رأسه «مبارك فور» حيث تقع المدرسة، و كان قد أصيب بوجع الركبة إصابةً عاقت دون سيره على الأقدام إلا بشق النفس، رُشِّح لعضوية المجلس الاستشاري بها رغم إبائه الشديد من جراء ظروفه الصحية، ولم يَدَعْه أعضاءُ المجلس الاستشاري حتى رضي بها.

وفي عام ٢٠١٣م أعفى المجلسُ الاستشاري مديرها لظروف طارئة وشغر منصب الإدارة، وأصر المجلس الاستشاري على توليته إدارة المدرسة، وهو يأبى ذلك كل الإباء، حتى رضي شريطة أن يختار المجلس شخصًا آخر يشغل هذا المنصب في مدة أقصاها شهران، ولكن لم يتوصل المجلس الاستشاري إلى تعيين شخص يخلفه في هذا المنصب، وأخيرًا اضطر إلى تقديم استقالته من منصبه بعد ذلك بتسعة عشر شهرًا. وقد تعوَّدَ الحضور إلى المدرسة والخروج منها على ميعادها المحدد ولايرضى التخلف عنه ولو دقيقةً، سواء كان أيام دراسته أو أيام تدريسه في هذه المدرسة أو غيرها، وكان يحرص كل الحرص على أن يتقيد طاقم الجامعة العربية من الأساتذة و غيرهم بمواعيد المدرسة بشدة متناهية، فرضي به من رضي، وكرهه من كره، ممن تعودوا التخلف عن مواعيد المدرسة لأعذار واهية لاتكاد تنطلي عليه. وبعد استقالته من منصب الإدارة ظل على عضوية المدرسة والإشراف عليها بإصرار من أعضاء المجلس الاستشاري. وتحسنت أوضاع المدرسة التعليمية أيام إدارته وشهدت تطورًا علميًّا ملموسًا، وانقلب جوّها التعليمي رأسًا على عقبٍ، مما بشَّر بمستقبل نير

للمدرسة التي فقدت كثيرًا من خصائصها وميزاتها التعليميـــة والدعويـــة و الإصـــلاحية في العقـــود الأخيرة، والتي يرجع نشأتها إلى عام ١٣٩٩هـ.

الجامعة الرشيدية بـ بمهور:

مؤســـسة تعليميـــة دينيـــة شـــهيرة في ولايـــة أترابراديش، كان حضرة الوالد عضوًا من أعضاء المجلس الاستشاري لها، وعلى صلة وطيدة بها وبالقائمين عليها، يزورها من حين لآخر بطلب من القـــائمين عليهـــا، ويحـــضر جلـــسات المجلـــس الاستشاري، ويزودهـا بآرائـه الـسديدة وتجاربـه الطويلة في مجال التعليم والدعوة والإرشاد، ويرأس الحفلات التي كانت تعقد المدرسة في رحابها، وكان رئيس المدرسة الشيخ أبرار أحمد البمهوري ينظر إليه نظرةً ملؤها الإعجاب والتقدير والاحترام.

الجامعة الحسينية بـجونفور:

مؤسسة تعليمية تقوم بنشاطاتها الممتدة على سنوات طويلة من الجامع الملكي بالبوابة الحمراء، و تمتاز المدرسة بنشاطاتها التعليمية على مستوى البلاد، ومديرها الشيخ توفيق أحمد القاسمي حفظه الله من تلامذته وأصحابه الأوفياء، وكان يحب حضرة الوالد رحمه الله حبًّا جمًّا. و لايمر بمنطقة «مبارك فور» إلا زاره وتزود بنصائح الغالية وكان يعدُّ ذلك سعادةً له أي سعادة.

الجامعة العربية أنوار العلوم/ وليد فور بمديرية مئو:

كان على صلة بهذه المدرسة، يزورها ويزود القائمين عليها بنصائحه الغالية، ويحضر الحفلات التي كانت تعقدها المدرسة بمناسبة تخريج الطلبة من قسم تحفيظ القرآن الكريم وتجويده. ويرأس كثيرًا منها.

مدرسة إشاعة العلوم/كوتله:

مؤسسة تعليمية كثيرة الخيرات والبركات، يرأس هيئة تدريسها تلميذه البارع الشيخ عبد الرحمن، وكان ينزل بالمدرسة في غدوه إلى مدينة «بنارس» للعلاج وغيره، وعودته منها، ويصلي فيها الصلوات إذا ما حان وقتها، ويستغل تلميذه هذه الفرصة للاستفادة العلمية منه خلال ذلك.

مدرسة تعليم الدين مباركفور:

كتّاب من الكتاتيب التابعة للجامعة العربية إحياء العلوم/مبار كفور، يقدم هذا الكتَّاب خدماته للفئتين: البنين والبنات على مستوى راقٍ، وكان الوالد رحمه الله مديرًا لهذا الكتَّاب لمدة من الزمان، وكان مقره في بعض الأبنية التابعة للمصلى في حي «فوره دلهن»، فسعى سعيه لإنشاء مبنى يخصه، فأهاب بالناس إلى مد يد المساعدة والعون إليها برفقة نائبه المفتي فهيم أخترالقاسمي، وفعلًا تمَّ جمع قدر كبير من المال، مكنه من إنشاء مبنى خاصٍّ بالكتاب بمساعدات سخية من الحاج محمد أكر بن الحاج محمد خليل وغيره من أصحاب الخير.

ومن المؤسسات التعليمية الدينية التي كان على صلة بها ويزورها ويزودها بنصائحه وتجاربه الغالية: مدرسة تعليم الدين بمدينة أعظم كره، ومدرسة فيض عام /ديوكاؤن، وجامعة شيخ الهند بأنجان شهيد، أعظم كره، ومدرسة دارالقرآن بـ«جهانا كنج»، في أعظم كره، والمدرسة الشرعية بجهانا كنج، ومدرسة أنوار العلوم بجهاناكنج يرأسها تلميذه الشيخ عبد الرب القاسمي–ومنبع العلوم بخيرآباد.

علاقته بجمعية علماء الهند:

وصل حبله بحبال جمعية علماء الهند، وظلّ على حب عظيم لقياداتها وعلمائها والعاملين فيها، وبدأ قديمًا حملة جمع التبرعات للجمعية، يقول الشيخ نوشاد أحمد: «بدأت حملة جمع التبرعات لجمعية العلماء الهند بمساعٍ بذلها الشيخ جميل أحمد المباركفوري». وكان بدوره يمد الجمعية بما استطاع من مال، وظل على ذلك طوال حياته.

* * *

الهوامش:

(١) اختلف المصادر في تحديد عام مولده، فجاء في جوازسفره تاريخ ولادته عام ١٩٤١م كما هو منوه أعلاه، ولكن كان حضرة الوالد يؤكد أنه من مواليد عام ١٩٣٩م، وهو الذي يعضده سجلات الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند لدى التحاقه بها؛ حيث تنص على أن مولده عام ١٩٣٩م، وكان عمره عند الالتحاق بها عام ١٩٥٧م (١٨) عامًا.

(٢) جمهورية أفريقيا الوسطى (بالفرنسية République centrafricaine) بلد غير ساحلي في وسط أفريقيا. أطلقت فرنسا على مستعمرتها التي اقتطعتها في هذه المنطقة بأوبانغي – شاري، حيث تقع معظم هذه الأراضي في أحواض نهري أوبانغي وشاري. وفي الفترة من سنة ١٩١٠ حتى عام ١٩٦٠م كانت تشكل جزءا من أفريقيا الاستوائية الفرنسية. وأصبح إقليميًا يتمتع بحكم شبه ذاتي في ظل الجمهورية الفرنسية في عام ١٩٥٨م، ومن ثم دولة مستقلة في ١٣ آب عام ١٩٦٠، فاتخذت اسمها الحالي. وكانت تُحكَم جمهورية أفريقيا الوسطى لأكثر من ثلاثة عقود بعد الاستقلال بحُكَّام غير منتخبين تولوا السلطة بالقوة. وتتمتع بالذخائر المعدنية الهامة وغيرها من الموارد، مثل احتياطيات اليورانيوم في «باكوما» والنفط الخام في فاكاغا والذهب والماس و الخشب والطاقة المائية، وكذلك الأراضي الصالحة للزراعة، وجمهورية أفريقيا الوسطى هي واحدة من أفقر البلدان في العالم وبين أفقر عشرة بلدان في أفريقيا. و تمر البلاد الآن بحرب شعواء بدأت في أواخر ٢٠١٢م.

(٣) النيجر (بالفرنسية: Niger)) وتدعى رسميًا باسم جمهورية النيجر هي بلد حبيس تقع في غرب أفريقيا، وأطلق عليها اسم النيجر نسبةً إلى نهر النيجر الذي يخترق أراضيها. وعاصمتها هي مدينة نيامي وهي أكبر مدن النيجر التي تقع أغلبها على الضفة الشرقية لنهر النيجر في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد. وتعد النيجر أحد أفقر دول العالم وأقلها نموًا على الإطلاق؛ إذ تغطي الصحراء الكبرى ما يقرب من ٨٠٪ من إجمالي مساحة البلاد، في حين تهدد الأجزاء الباقية مشكلات مناخية أخرى مثل الجفاف والتصحر. ويعتمد اقتصاد البلاد بشكل شبه كلي على تصدير بعض المنتجات الزراعية والتي يتركز إنتاجها في الجزء الجنوبي الخصب من البلاد، بالإضافة إلى تصدير بعض المواد الخام ومن أهمها خام اليورانيوم. وبالرغم من هذا؛ تظل النيجر عاجزة عن النهوض بنفسها اقتصاديًّا واجتماعيًّا نتيجة لموقعها كدولة حبيسة، بالإضافة إلى افتقارها للبنية التحتية المناسبة وتدهور حالة القطاع الصحي بالبلاد، وكذلك انحسار مستوى التعليم والظروف البيئية. ويعد الإسلام هو دين أغلبية السكان في البلاد. ويسكن الجزء الأكبر من سكان النيجر المناطق النائية من البلاد حيث يفتقرون فرص الانتظام في التعليم.

(٤) بنين (بالفرنسية: Benin) أو رسميّاً جمهورية بنين، دولة تقع في غرب أفريقيا. واللغة الرسمية في بنين هي الفرنسية ومع ذلك تستخدم عادة لغات السكان الأصليين مثل الفون واليوربا. أكبر مجموعة دينية في بنين هي الكاثوليكية الرومانية، يتبعها الإسلام بنسبة قريبة، والفودونو البروتستانت. «بنين» عضو في الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنطقة السلام والتعاون جنوب الأطلسي والفرانكوفونية وتجمع دول الساحل والصحراء ورابطة منتجي النفط الأفارقة وسلطة حوض النيجر. قامت فرنسا بفرض سيطرتها على المنطقة وتسميتها داهومي الفرنسية في عام ١٩٦٠، ونالت داهومي الاستقلال التام عن فرنسا؛ لتقيم حكومة ديمقراطية للسنوات الاثنتي عشرة المقبلة. وبين عامي ١٩٧٢و ١٩٩٠، ظهرت للوجود ديكتاتورية ماركسية لينينية تعرف باسم جمهورية بنين الشعبية، ودخلت البلاد في فترة من القمع الذي أدى في النهاية إلى الانهيار الاقتصادي. تشكلت جمهورية بنين في عام ١٩٩١م وجلبت معها انتخابات متعددة الأحزاب.

* * *

الداعية المعلم المخلص
الشيخ محمد قاسم القاسمي رحمه الله

(١٣٧٢-١٤٤٠هـ/١٩٥٣- ٢٠١٩م)

بقلم: **مساعد التحرير**

انتقل الداعية الشيخ محمد قاسم القاسمي إلى رحمة الله تعالى في الساعة العاشرة وعشر دقائق من صباح ٢٢/ جمادى الأولى عام ١٤٤٠هـ الموافق ٢٩/يناير عام ٢٠١٩م، إثر مرض قصير، فقد ألقى الشيخ درسًا في تفسير القرآن الكريم في ٢٧/يناير بعد صلاة العصر، وصلى المغرب وقام لأداء سننها، إذ خرَّ على الأرض مغشيًّا عليه، وتمّ نقله على إثره إلى المستشفى، و توصّل الأطباء إلى أنه أصيب بنزيف الدم في الدماغ (brain hemorrhage) وتمّ إجراء عملية له إلا أن أجله قد وافاه، فلبى نداء ربه صباح الثلاثاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فللَّه ما أعطى وله ما أخذ، وكل شيء عنده بأجل مسمى.

وصلى عليه الناس ثلاث مرات: الأولى في الساعة الحادية عشرة في ساحة «غاندي» التاريخية، والثانية في الجامعة المدنية «سبل فور» في نحو الساعة الواحدة ظهرًا، والثالثة في مسقط رأسه: كوروديه، من مديرية «بهاغلفور»، وثوي جسمانه في مقبرة «بهاغلفور» نفسها.

وخلّف الشيخ وراءه: أربع بنات، وابنًا واحدًا، يدرُس في الجامعة الحسينية لال دروازه جونفور، التي يديرها فضيلة الشيخ توفيق الجونفوري أحد مشاهير العلماء في المنطقة بأعماله الخيرية.

وكان الشيخ قاسم أكبر إخوته، ومن إخوته: الشيخ محمد عاصم، والشيخ محمد سالم، والشيخ محمد ناظم كلهم علماء لهم أعمال علمية وتدريسية في المنطقة.

ولد الشيخ قاسم في نوفمبر عام ١٩٥٣م في قرية «كورديه» من أعمال «بهاغلفور» بولاية بيهار، وتلقى الدراسات الدينية الابتدائية في قريته و غيرها من المدن، وتخرّج في الجامعة الإسلامية: دارالعلوم /ديوبند عام ١٩٧٠م، ثم نذر نفسه لتدريس المواد الدينية، وتنقّل في مدارس عدة في ولايته، وانتهى به المطاف إلى مدرسة شمس الهدى بمدينة «بتنه»

بولاية بيهار في ٢٠/نوفمبر عام ١٩٧٩م، حيث تم ترشيحه أستاذًا لمادة الحديث، وتدرج في مناصب عدة حتى شغل منصب مدير المدرسة عام ٣٠/نوفمبر عام ٢٠١١م. وبجانب نشاطاته التدريسية وإدارة المدرسة المنوه أعلاه أنشأ الشيخ قاسم القاسمي عشرات المدارس والكتاتيب الدينية التي تقوم بنشر العلم والنور الديني في المنطقة وتعمل على تثقيف أبنائها ثقافة دينية.

وعلاوة على ذلك كان الشيخ يلقي درسًا في تفسير القرآن بعد العصر كل يوم في المسجد المركزي النوري بمدينة «بتنه» منذ عام ١٩٨٠م، حتى آخر لحظة من حياته. كما كانت له حلقات دروس بعد صلاة العشاء في مساجد مختلفة منها: مسجد حي علي نغر «بتنه» في كل يوم أحد، وفي مساجد من المدينة يوم الاثنين بعد صلاة العشاء حينًا بعد حين.

وكان الشيخ القاسمي يحمل ملكة خطابية قوية عديمة المثال، فكان يلقي كلمة ضافية قبل صلاة الجمعة من كل أسبوع في مسجد النور المركزي بمدينة «بتنه» منذ عام ١٩٨٠م.

وكتب الله تعالى للقاسمي قبولًا وشعبيةً واسعةً فظل خطيب العيدين في مسجد ساحة «غاندي» في مدينة «بتنه» منذ عام ١٩٨٦م حتى ٢٠١٢م. وكان على صلة وطيدة بالمؤسسات التعليمية الكبرى والمنظمات الإسلامية الخيرية في البلاد، منها: الهيئة التعليمية بولايتي بيهار وجهار خاندا، واختير رئيسًا لها في ١٢/نوفمبر عام ١٩٨٦م، كما رأس رابطة المدارس الإسلامية فرع ولاية بيهار منذ عام ٢٠٠٥م. وشغل عدة مناصب في جمعية علماء الهند فرع «بيهار» في مختلف الفترات. واختير عضوًا للمجلس التنفيذي لرابطة المدارس الإسلامية التابعة لدارالعلوم/ديوبند عام ٢٠٠٧م، كما انتخب عضوًا للمجلس التنفيذي لجمعية علماء الهند.

رحلات قام بها الشيخ القاسمي:

قام الشيخ القاسمي برحلات دينية ودعوية كثيرة لدول عدة، منها: البحرين، والشارقة، ودبي، و إفريقيا، وقطر، والسعودية. وأما الرحلات الدعوية والدينية داخل البلاد فحدث عنها ولاحرج. وسعد بالحج عدة مرات، والعمرات المتتابعة منذ عام ١٩٩٧ من غير تخلف في سنة من السنوات.

أحسن الله عزاءنا في الشيخ القاسمي الذي أجهد نفسه في خدمة الإسلام والمنافحة عن مذهب أهل السنة والجماعة، ورزق أهله وذويه الصبر والسلوان، وأوسع مدخله إلى الجنان، وأنزله في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

❊ ❊ ❊

العالم الشهير والمربي الجليل
الشيخ محمد يعقوب القاسمي رحمه الله

(١٣٥٣-١٤٤٠هـ/ ١٩٣٤-٢٠١٩م)

بقلم: **مساعد التحرير**

يـــوم الأحـــد ٢٧/ جمـــادى الأولى١٤٤٠هـ الموافـق٣٣/ فبرايـر عـام ٢٠١٩م ارتحـل إلى جـوار ربـه العـالم الـشهير الـشيخ محمـد يعقـوب القاسـمي عـضو المجلس الاستـشاري بـدار العلـوم/ ديوبنـد وأحـد كبـار علـماء جنـوب الهنـد ومـن خريجـي دارالعلـوم/ديوبند والناطقين بلسانها، والأمين على مذهبها وفكرها في هذه المنطقة من البلاد عن عمر يبلـغ ٨٦ عامًـا، ودفـن في مقـبرة عائلتـه بـ«ميـل وشارم».

أثنى عليه كثير من العلماء منهم: فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند، الذي قال في خطاب عزائه:

«لقـد وقـع نعـي وفـاة فـضيلة الـشيخ محمـد يعقـوب -رحمـه الله- صـاعقةً علينـا نحـن مـسؤولي الجامعـة وأسـاتذتها، وطلابهـا، فإنـا لله وإنـا إليـه راجعون.

كان الشيخ نموذجًا حيًّا لما كان عليه كبار علمائنا وسلفنا الصالح، في جنوب الهند، قام بالتدريس في كل مـن دارالعلـوم سـبيل الرشـاد/ بنغـالور، وجامعـة الباقيـات الـصالحات/ويلـور، ومدرسـة كاشـف العلـوم/مـدراس، فاستقى مـن نمـيره الفيـاض عـدد لايحصى مـن طـلاب العلـوم الدينيـة، وكـان – رحمـه الله- مجبـولًا عـلى الـسذاجة والبساطة، ومـن أعـضاء المجلس الاستشاري لدارالعلوم/ ديوبند، كان يعيش دائـمًا هـاجس النـصح والخـير لـدارالعلوم /ديوبنـد، والنهـوض بمـستواها. ولي منصب إمـارة الـشريعة في ولايـة «تملنـادو»، وشغلُه المناصب الهامة مما ينمُّ عـن مقدرته وكفاءته العلمية الخارقة.

ومفارقـة الشخـصيات البـارزة واحـدةً تلـو أخرى في العهـد الـذي يشكو شـح الرجـال الأكفـاء يشكلٍّ خسارةً لاتعوض للأمة الإسلامية.

وبهـذه المناسبة الحزينة نتقدم بواجب العـزاء لعائلتـه وأولاده وذويـه، داعـين المـولى عـزو جـل أن يتقبـل مـن الـشيخ محمـد القاسـمي حسناته، ويغفرلـه زلاتـه، وأسكنه بجـوار رحمتـه في جنـات الفـردوس، ومـنَّ عليـه بخاصـة عفـوه وكرمـه ورحمتـه. وأجـزل مثوبتـه عـلى مـا قـام بـه مـن الخـدمات المـشكورة في جنوب الهند، وأخلفنا خيرًا منه ممن يملأ الفرغ الذي تركتـه مفارقتـه، وصـب عـلى العائلـة الحزينـة الـصبر والسلوان.

مولده:

ولـد الـشيخ محمـد يعقـوب بـن محمـد إسـماعيل القاســمي في٢٧/رجــب عــام ١٣٥٣هـ الموافــق ٢١/نوفمبر عام ١٩٣٤م في حي «بكتيني مسجد»

من «ميل وشارم».

بـدأ دراسـته في مدرسـة عـصرية في «ميـل وشـارم»، ثـم أكمـل دراسـته إلى المرحلـة الخامسة العربية في جامعة الباقيات الصالحات/ ويلور، ثم شد رحاله للدراسات العليا إلى الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، والتحق بها وأمضى سنوات في رحابهـا ليتخـرج منهـا عـام ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م في مختلف العلوم والفنون.

ومن أبرز أساتذته في دارالعلوم/ديوبند شيخنا الشيخ معراج الحق (١٣٢٨-١٤١٢هـ / ١٩١٠-١٩٩١م) -رحمه الله-، وكان من ألصق الناس به.

وبعد ما أكمل دراسته وتخرج في دارالعلوم بدأ مشواره التدريسي، فتنقل في عدة مدارس من الولاية مدرسًا وأستاذًا للمواد الدينية منها: سبيل الرشاد بنغالور، ومظاهر علوم /سِيْلَمْ، وجامعة الباقيات الصالحات، والمدرسة الحسينية كايم كولا كيرالا وغيرها. وشغل مناصب إدارية في كثير منها. وولي التدريس في مدرسة كاشف العلوم/مدراس عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، وارتقى إلى رئاسة التدريس بها. واستمر في مجال التدريس نحو (٥٦) عامًا.

صلته بالمشايخ:

كان على صلة بمشايخ كثيرين بارزين من أبـرزهم المحـدث الـشهير الـشيخ محمـد زكريـا الكاندهلوي، وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، وأجازه بأخذ البيعة والسلوك المقرئ أمير حسن – أحد خلفاء الشيخ زكريا -رحمه الله-.

مناصب شغلها:

١. عضو المجلس الاستشاري لدارالعلوم/ ديوبند منذ عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢. أمير الشريعة لولاية تملنادو.

٣. رئيس مجلس صيانة ختم النبوة فرع الولاية.

٤. رئيس مجلس صيانة الشريعة الإسلامية فرع الولاية.

٥. مشرف على معظم المدارس في الولاية.

٦. شيخ الحديث بمدرسة كاشف الهدى والمشرف عليها، وعلى المدارس التابعة لمدرسة كاشف الهدى، والبالغ عددها نحو ثلاثين مدرسة.

٧. نشاطات واسعة النطاق في تأييد مذهب أهل الحق والرد على الفرق الباطلة.

أعماله وكتبه:

١. قام بترتيب وتبويب فتاوى الشيخ عبد الوهاب الويلوري مؤسس جامعة الباقيات الصالحات.

٢. له مجموعة خطبات نشرت باسم «خطبات وشارم».

خلقه وشمائله:

كان الشيخ محمد القاسمي على غاية من التقوى والورع و الخلق الإسلامي القويم، وشخصية لاتعرف الملل والسآمة، قضى حياته كلها في مجال الإصلاح الديني والروحي و الاجتماعي، والأعمال الخيرية.

غفر الله له ذنبه، وأدخله بحُبْوُحَة جنانه، وألهم أهله و ذويه الصبر والسلوان.

* * *

مدينة «ميروت» تشهد اضطرابًا طائفيًا لأمرٍ تافهٍ تراشق بالحجارة وإطلاق نار يؤديان إلى جرح بضعة أشخاص، وقوات الشرطة تنتشر في المنطقة

بقلم: **مساعد التحرير**

ميروت (إيس إين بي)

شهدت قصبة «سردهنه» التابعة لمدينة «ميروت» قلقًا طائفيًّا لأمر تافه، وتبادل الفريقان إطلاق النار والتراشق بالحجارة بعضهم إلى بعض، مما أدى إلى جرح بضعة أشخاص من الفريقين. وتلّقت الشرطة أنباء الاضطراب والقلق وتوجّهت إلى مكان الحادث ونقلت المصابين إلى المستشفى.

تفيد المصادر أن قرية «درويش فور» الخاضعة لمركز شرطة قصبة «سردهنه» شهدت مشادّة كلامية بين المسلمين والهندوس لأمر تافه، ثم خرج الفريقان من بيوتهم بالعصي والهراوي في صدام عنيف بينهما طال نصف ساعة، كما أطلق الفريقان النار بعضهما على بعض، مما أدى إلى جرح عدد منهم، و وصلت الشرطة إلى مكان الحادث وتغلبت على الوضع المتدهور قبل أن يستفحل أمره، ونشرت قوات الأمن في المنطقة تفاديًا من حدوث ما لا يحمد عقباه لاحقًا.

(صحيفة «راشتريه سهارا» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٨، السنة:١٩، العدد:٦٤٥٩٩، يوم الاثنين: ٥/جمادى الآخرة١٤٤٠هـ الموافق ١١/فبراير ٢٠١٩م).

* * *

محاولة فاشلة لاستنساخ ما تعرض له مسلمو «ميانمار» على أرض الهند

المحكمة العليا الهندية ترفض النظر في قضية رفعت إليها في خصوص إجلاء المسلمين من الهند

دهلي الجديدة (بي إن آئي)

وسط أجواء مشحونة بالنفور والكراهية ضد المسلمين، تخلقه الجماعات الهندوسية المتطرفة رفعت إلى المحكمة الهندية العليا دعوى تطالب بإجلاء المسلمين الهنود كلهم إلى باكستان.

ومما يبعث على الحيرة والاستغراب أن الجماعات الهندوسية المتطرفة كانت تنفث السموم ضد المسلمين على مرآى ومسمع من العالم كله إلا أنها لم تقتنع بذلك حتى رفعت الدعوى إلى المحكمة الهندية العليا لإجلائهم من الهند إلى باكستان.

ورفضت المحكمة الهندية العليا النظر في القضية رفضًا باتًّا في الأيام الأخيرة، وأعربت اللجنة المكونة من قضاة المحكمة العليا عن غاية قلقها على رفع مثل هذه الدعاوي إلى المحكمة. ولم تكتف اللجنة بذلك حتى كلفت المحامي الذي تقدم بالدعوى إلى المحكمة قراءة المطالبة المشتملة عليها الدعوى بصوت جهوري، ثم تساءلته اللجنة قائلة: أحقًّا تريد من المحكمة النظر في القضية؟ لامانع لدينا من ذلك إلا أنه سيصدر ضدك قرار اللوم». فما أن سمع المحامي ذلك حتى تنازل عن القضية، فأبطلت المحكمة الدعوى المذكورة.

والجدير بالذكر أن المحكمة العالية بمدينة «ميكهاليه» أثار بعضُ قضاتها أمثال هذه النقاط خلال إصدار الحكم في قضية من القضايا المنظورة لديه وقال: كان من المفروض إعلان الهند دولةً هندوسيةً لدى تقسيمها إلى بلدين: الهند وباكستان. وسبق أن أصدر رئيس المحكمة العليا إشعارًا إلى مكتب التسجيل في المحكمة العالية بمدينة «ميكهاليه» بضرورة شطب هذا الجزء من تعليقاته على القضية.

(صحيفة «سج كي آواز» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص١، السنة:١، العدد:٥٧، يوم السبت: ٨/رجب١٤٤٠هـ الموافق ١٦/مارس ٢٠١٩م).

رئيس الجامعة: لايصح التدخل في قضية ملكية الأراضي في مدينة « أيودهيا » من غير سلطان

بقلم: **مساعد التحرير**

وسط مطالبة الحكومة المركزية المحكمةَ العليا في الأيام الأخيرة بإعادة تحويل الأراضي المقدرة مساحتها (٦٧) أكر (acre) التي جعلتها المحكمة العليا – مالم يتم البتُّ في قضية المسجد البابري المتنازع عليه بين المسلمين والهندوس – إلى حيازة الحكومة المركزية، قال رئيس الجامعة فضيلة الشيخ أبو القاسم النعماني حفظه الله وهو يعرب عن رأيه في ذلك-: «القضية برمتها لازالت في مداولات المحكمة العليا وهي تنظر فيها، ولم أطلع على الأدلة التي استندت إليها الحكومة المركزية في مطالبتها بذلك. وهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند تشكل طرفًا في القضية، والأطراف المعنية بالقضية عليها أن تتقبل ما تتوصل إليه المحكمة العليا من الحكم في ضوء الأدلة والبراهين».

(صحيفة «راشتريه سهارا» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٥، السنة:١٩، العدد:٦٤٥٨٧، يوم الأربعاء: ٢٣/جمادى الآخرة١٤٤٠هـ الموافق ٢٠/يناير ٢٠١٩م).

* * *

وفد من علماء فلسطين والسودان يزور الجامعة

يوم السبت: ٢٧/جمادى الأولى عام ١٤٤٠م الموافق ٣/فبراير ٢٠١٩م زار وفد مكوّن من علماء فلسطين والسودان الجامعةَ الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، واجتمع برئيس الجامعة فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني –حفظه الله– والشيخ أرشد المدني –حفظه الله–، وأجرى حوارًا مفصلًا حول العلوم الإسلامية. وتجوّل الوفد في مرافق الجامعة مرورًا بجامع رشيد العملاق و المكتبة المركزية قيد اللمسة الأخيرة والمكتبة القديمة العامرة بنوادر المخطوطات والمصادر و المراجع العلمية. وأعرب الشيخ يوسف علي يوسف –أحد علماء السودان– عن غاية فرحه بما شاهد في رحاب الجامعة من المباني القديمة والحديثة، وقال فضيلة الشيخ إبراهيم مهنا –أحد علماء فلسطين–: «لقد لعبت ولازالت تلعب هذه المؤسسة التعلمية دورًا ملموسًا في نشر الإسلام وعلومه وفنونه. وانتفع العالم ببركاتها وفيوضها، وهذه الأبنية القديمة تشع عنها أنوار إخلاص مؤسسيها وبناتها الأولين.

واطلع الوفد الموقر على نسخ التوراة والإنجيل القديمة ونسخة من المصحف الشريف بخط يد الملك المغولي المسلم أورانك زيب عالمكير، وغيرها من نوادر المخطوطات والمصادر. وأبدى فرحته الغامرة بذلك.

وسجل الضيوف المبجلون من انطباعاتهم ما يلي:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وبعد:

فقد زرنا الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، الهند، وكم سررنا عندما تجولنا بأروقتها المختلفة ووقفنا كثيرًا عند مكتبتها العامرة، جزى الله خيرًا القائمين

عليها ووفقهم لخدمة الإسلام والمسلمين، سائلين المولى عزوجل دوام التوفيق والنجاح.

ولقد لفت نظرنا كتاب بعنوان (فلسطين في انتظار صلاح دين).

لعل الله عزوجل يقيض لفلسطين من علماء الهند من يكون فاتحا للمسجد الأقصى المبارك. اللّهم آمين.

إخوانكم من هيئة علماء فلسطين في الخارج.

د: إبراهيم مهنا، رئيس لجنة البحوث والدراسات بهيئة علماء فلسطين في الخارج.

الشيخ علي اليوسف ٢٦/جمادى الأولى عام ١٤٤٠هـ

القدس قلب المسلمين العاصمة

فليشهد المحتل منا القاصمة

* * *

برعاية فضيلة رئيس الجامعة والأمين العام للرابطة رابطة المدارس الإسلامية في الهند التابعة للجامعة تشهد في رحابها اجتماعا للمجلس التنفيذي يوم الاثنين: ٢٨/ جمادي الأولى ١٤٤٠هـ الموافق ٤/ فبراير عام ٢٠١٩م

عقدت «رابطة المدارس الإسلامية الهندية» التابعة للجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند اجتماعًا للمجلس التنفيذي برئاسة معالي رئيس الجامعة والأمين العام للرابطة، حضره أكثر من ثلاثة آلاف وخمس مئة من خيرة العلماء وممثلي المدارس الإسلامية الأهلية المنتشرة في الولاية الهندية المختلفة أمثال: «أترابراديش»، و«آسام» و«دهلي» و«بنجاب» و«هماجل براديش» و«جمون و كشمير» و«بنغال الغربية» و«أريسه» و«راجستهان» و«غوجرات» و«مهاراشترا» و«آندهرابراديش» و«تامل نادو».

عقدت الرابطة الجلسة الافتتاحية صباحًا واستمرت إلى الظهر بتلاوة آي من القرآن الكريم تشرف بها المقرئ آفتاب عالم – أستاذ التجويد والقراءات في الجامعة– وأدار الحفلة الشيخ شوكت علي القاسمي البستوي– المشرف على رابطة المدارس الإسلامية-. وبعد ما رحب رئيس الجامعة بأعضاء الرابطة وجههم إلى وضع آلية متينة لإجراء الاختبارات الجماعية في المدارس الإسلامية، والسعي الحثيث لتطوير نظام التعليم والتربية على منهج دار العلوم/ديوبند.

وقال معالي الأمين العام للرابطة في كلمته الافتتاحية القيمة التي ألقاها على الحضور:

«إن رابطة المدارس الإسلامية التابعة للجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند منظمة على مستوى البلاد تهدف إلى تحسين النظام الداخلي في المدارس الإسلامية، وإحكام نظام تعليمها وتربيتها، و توطيد العلاقات بعضها مع بعض، والتوصل إلى الحلول المناسبة للمشكلات التي تواجهها المدارس الإسلامية العربية الهندية من خلال دراستها دراسةً جادةً واعيةً».

ومن أبرز مَن حضر اجتماع اللجنة التنفيذية وناقش القضايا المطروحة على بساطها: فضيلة رئيس الجامعة والأمين العام لرابطة المدارس الإسلامية الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني، والشيخ المفتي سعيد أحمد البالنبوري – رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بالجامعة– والشيخ قمرالدين، والشيخ نعمت الله الأعظمي، والمقرئ محمد عثمان المنصور فوري، ونائبا رئيس الجامعة: الشيخ عبد الخالق المدرسي، والشيخ عبد الخالق السنبهلي؛ والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي -أستاذ الحديث بالجامعة-، والشيخ نور عالم خليل الأميني– رئيس تحرير مجلة «الداعي»، وأستاذ اللغة العربية وآدابها بالجامعة-، والشيخ صديق الله، والشيخ شوكت علي، حفظهم الله وكثيرون غيرهم.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ١٠٤

و معنى «المنّ» تعداد النعمة على المُنْعَم عليه. مثلًا: أن يقول له: قد أكْرَمْتُك بكذا، أو أعطيتُك كذا، وأحسنتُ إليك بكذا يومَ كذا، ورغم ذلك تصنع معي ما تصنع من إساءة المعاملة! هل فقدتَ الحياءَ كلَّه، وتَجَرَّدْتَ من كل معنى من المروءة.

والأذى: كلُّ مايُؤْذِي المُنْعَمَ عليه من القول أو الفعل أوالتصرف. جاء في تهذيب اللغة للهروي (أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي البارع في اللغة والحديث: ٣٩٦-٤٨١هـ = ١٠٠٦-١٠٨٩م) المنُّ هاهنا: أن تَمُنَّ بما أعطيتَ وتَعْتَدَّ به، كأنك إنما تقصد به الاعتدادَ. والأذى: أن تُوَبِّخَ المُعْطَى.

قال رسول الله –صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ–:

«ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُم اللهُ يومَ القيامة: المَنَّانُ الذي لا يُعْطِي شيئًا إلّا مَنَّه، والمنفق سلعتَه بالحلف، والمسبل إزاره» (مسلم: ١٠٦).

وقد أثنى اللهُ على المنفقين المخلصين الذين يَبْتَغُون فقط رضي الله تعالى ولا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا، و وعدهم بالجزاء الموفور، وبأنهم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون يوم المحشر والجزاء، ومُقَابلَ ذلك ذَمَّ الذين يُنفِقُون في وجوه الخير مَانِّين مُرَائِين حريصين على كسب الثناء وحسن الذكر على ألسنة الناس. فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٢-٢٦٣).

وقد دلّتِ الآيةُ على المعاني الآتية:

١- أن يضع المنفقُ في وجوه الخير أو على الفقراء في اعتباره أنه لايُنْفِق إلّا لوجه الله؛ حيث قال تعالى: «في سبيل الله» فلا ينفق في سبيلٍ غيرِ سبيل رضا الله.

٢- أن مَن أَتْبَعَ ما يُنْفقه مَنًّا أو أذًى، فلا أجرَ له لقوله عزّ وجلّ: «ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ»؛ فبمجرد إِتْبَاعه نفقتَه مَنًّا أو أذىً حَبِطَ عملُه وبَطَلَ أجرُه. وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾.

٣- أن للنفقةِ المقبولةِ شرطًا ومُبْطِلَات، فالشرط أن تُبْذَل عن إخلاص واحتساب. والمبطلات: هي المنّ والأذى والرياء.

٤- أن يحرص المسلمون على الإنفاق في سبيل الله، الذي هو باب واسع، وله وجوه لا تُعَدَّ، وصورٌ لا تُحْصَىٰ. وذلك لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ

أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِـمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلَاهُـمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٥- أن المنفقين لابتغاء وجه الله إذا سلموا من المبطلات للصدقات والنفقات المبذولة في سبيل الله لاينالهم خوف من أهوال يوم القيامة وعلى مستقبلهم في حياتهم الدنيا ولا يحزنون على حالة الأولاد والعيال التي تركوها في الدنيا ولا على الماضي الذي عاشوه. وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٦- أنّ القولَ المعروفَ له منزلة كبيرة عند الله، لقوله تعالى:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَّ مَغْفِرَةٌ خيرٌ مِـنْ صَـدَقَةٍ يَّتْبَعُهَـــا﴾. والقول المعروفُ ما عَرَفَهُ الشرعُ والعادةُ من القول الليّن والكلمة الطيبة واللفظ المعسول.

٧- أن الآية تَحُثُّ على المغفرة لمن أَسَاءَ إلى أحد بقول أو فعل أو تصرف، فتألم قلبُه أو تَأَذَّىٰ جسمه وجُرِحَت مشاعره، شريطةَ أن تكون المغفرة إصلاحًا لا إفسادًا، لقوله تعالى: ﴿فَمَـنْ عَفَا وَأَصْـلَحَ فَـأَجْرُه عَلَى الله﴾ (الشورى:٤٠) فإذا قَدَّر الغافر أن مغفرته ستُؤَدِّي إلى فساد من غفر له إساءتَه، فلا يُقْدِم على المغفرة، لأنها تجعله يُسِيءُ إلى الآخرين، أو يُكَرِّر الإساءةَ إلى مَنْ غفر تصرّفَه الأول.

قال القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي القرطبي الأندلسي: ما بين ٦١٠ و ٦٠٠-٦٧١هـ = ١٢٠٤-١٢٧٣م) في تفسير الآية ٢٦٤ من سورة البقرة التي تَضَمَّنَت المنَّ والْأَذَىٰ: وإنّ الصدقةَ التي يعلم اللهُ من صاحبها أنه يَمُنُّ أو يُؤْذِي بها، فإنها لا تُقْبَل. وقيل: بل قد جَعَلَ اللهُ للمَلَكِ عليها أمارةً؛ فهو لا يكتبُها. وهذا حَسَنٌ. والعربُ تقول لما يُمَنّ به: يد سوداء، ولما يُعْطَىٰ عن غير مسألة: يد بيضاء، ولما يُعطَىٰ عن مسألة: يد خضراء. وقال بعضُ البُلَغَاء: مَنْ مَنَّ بمعروفه سقط شكرُه ومن أُعْجِبَ بعمله حَبِطَ أجرُه.

قال الشاعر:

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ
لَيْسَ الْكَـرِيمُ إِذَا أَسْـدَىٰ بِمنَّانٍ

ورُوِيَ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: «إِيَّاكُم والامتنانَ بالمعروف؛ فإنه يُبْطِل الشكرَ ويَمْحَقُ الأجرَ، ثم تلا: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ» (تفسير القرطبي ٣١٢/٣).

على كل، من أمارات الإخلاص في الانفاق على المحتاجين وفي وجوه الخير أن يُبَالِغ المُنْفِق في إخفاء الصدقة والنفقة، لا أن يُرِيها الناسَ ويَمُنّ بها على من أنفق عليهم أو يُؤْذِيَهم بأي من قوله أو تصرفه. إنّ هذا المُنْفِق له فضيلة كبيرة وأجر

جزيل وهو سيكون في ظلّ الله يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي –ﷺ– قال:

«سبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظلّه يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه: الإمام العادل، وشابٌّ نَشَأَ في عبادة ربّه، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، ورجلانِ تحَابَّا في الله اجتمعا عليه وتفَرَّقَا عليه، ورجلٌ طَلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِب وجمال فقال: إني أخاف اللهَ، ورجلٌ تَصَدَّقَ فأَخْفَاها حتى لا تعلمَ شِمَالُه ما تُنْفِق يمينُه، ورجلٌ ذَكَر الله خاليًا ففاضت عيناه» (البخاري: ٦٦٠؛ ومسلم: ١٠٣١).

وهذا المُنْفِق على الفقراء وذوي الحاجات تُفَكُّ رقبتُه من النار؛ فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: خرج رسول الله –ﷺ– في أَضْحَى أو فِطر إلى المُصَلَّىٰ، فمَرَّ على النساء، فقال: «يا معشرَ النساء تَصَدَّقْنَ؛ فإني أُرِيتُكُنَّ أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله»؟ قال: «تُكْثِرن اللعنَ، وتَكْفُرْنَ العشيرَ، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهبَ للُبِّ الرجل الحازم من إحداكنّ» فقلن: وما نُقْصَانُ ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادةُ المرأة مثلَ نصفِ شهادةِ الرجلِ» قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ». قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصانِ دينها» (البخاري: ٣٠٤؛ ومسلم ١٣٢).

ويُنْجِي الإنفاقُ المُخْلَص الذي يندرج ضمنَ «الإنفاق في سبيل الله» أي الصدقة من عذاب القبر كذلك؛ فعن عُقْبَة بن عامر – رضي الله عنه – عن رسول الله –ﷺ– قال: «إن الصدقةَ لتُطْفِئُ على أهلها حَرَّ القبور، وإنما يَسْتَظِلُّ المؤمنُ يومَ القيامة في ظلّ صدقته» (الطبراني في الكبير: ١٤٦٢٢؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٣١٩٢).

فيامن تصدقتَ، وأنفقتَ مالًا طائلًا، ظنًّا منك أنك تُنْفِقه في سبيل الله وفي وجوه الخير والصلاح والفلاح، ولكنك نويتَ أن يتسامع به الناسُ، أو يراك تبذل في سبيل الخير، فيُعْجَبون بك، ويُثْنون عليك، ويذكرونك في النوادي والخلوات، أو مَنَنْتَ على مَنْ أنفقتَ أو دَعَّمْتَ مشاريعَه التي يقوم بها لمصلحة المسلمين العامّة، أو آذَيْتَه بلفظة تعيير أو احتقار، أو سلوك غير لائق، أو تصرّف جارح للمشاعر!.

قد نجحتَ في أنك حُزْتَ الثناء من أفواه الناس، وكثرة الذكر في المجتمع، والسمعةَ الواسعة بين كل من رآك أو سمع عنك أنك قد أنفقتَ الجزءَ الوجيهَ من دخلك في وجوه الخير والإنسانية وصلاح المسلمين، وعامّة خلق الله دون النظر إلى دياناتهم ومُعْتَقَداتهم.

ولكنك خَسِرتَ كَسْبَ رضا الله والنفع في الآخرة.. ذلك المطلب الأعلى الأنبل الأسنى الأفضل عند المخلصين أعمالَهم لله المحتسبين أجرَه.

يا من أَسَّسْتَ المدارسَ والجامعات، وأَنْشَأْتَ المؤسسات الخيريّة، والمستشفيات والملاجئ، ودورَ العَجَزَة والأيتام والأرامل، وحفرتَ الآبارَ في المناطق التي يشكو فيها الناسُ شُحَّ الماء، ونَثَرْتَ المبالغَ الوفيرةَ والنقودَ الكثيرةَ على الفقراء والمساكين طوالَ حياتك وفي المناسبات الخاصّة خصوصًا، وأنفقتَ على مَنْ عَضَّه الدهرُ، وقَرَصَتْه المصائبُ، وخَذَلَتْه الأقاربُ والأباعدُ، وفَجَعَتْه الأيامُ والليالي، وأطعمتَ الجيعانَ، وسَقَيْتَ العَطْشَى، وكَسَوْتَ العُرَاة، و وَقَفْتَ بجانب المسحوقين، وساعدتَ المظلومين، ومَسَحْتَ دمعةَ البائسين المحزونين، وكنت سندًا لكل من لا سندَ له، وعونًا لكل من يفقد حتى كِسْرَةَ خبز بائتةً، وعالجتَ المَرْضَى الذين اشتدّت أمراضُهم، وأَعْضَلَتْ أدواؤُهم، وآويتَ من لا مأوى له، وبنيتَ مساكن لمن لايستطيعون بناءَها، و وَفَّرت وسائلَ مَادّيّةً لطلاب العلوم الدينية، وتثقيف النشء الإسلامي، وتخريج أبناء وبنات المسلمين بارعين في شتى العلوم التي يقتضيها العصرُ حتى يعيشوا هم وأمتهم أَعِزَّةً مُكْرَمين.

لقد ضَاعَتْ نفقاتُك عند ربّك إذا أَرَدْتَ – لا قَدَّرَ اللهُ – الإعجابَ والثناءَ والتصفيقَ من خلقه، أو مننتَ بما أنفقت على من أنفقتَ عليهم، أو آذيتَهم بقول أو فعل. أَخْلِصِ النيةَ في كل ما تَبْذُله على غيرك، واحْتَسِبِ الأجرَ عند اللهَ وحده، أمّا الثناء فتحصلُ لك عفوًا؛ لأن المعروفَ جميلُ الظاهر، طَيِّبُ الباطن، حلوُ المذاق. كما قال الشاعر العربيّ الحكيم:

وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوف أَمَّا مَذَاقُهُ
فَحُلْوٌ و أَمَّا وَجْهُه فَجَمِيلُ

فيجب أن يبقى ما أنفقتَ بريئًا من المن والأذى، خاليًا من التظاهر والرياء.

وصدق الشاعر العربي الكبير الشهير المتنبئ (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الكندي الكوفي المولد: ٣٠٣-٣٥٤هـ = ٩١٥-٩٦٥م).

إذ قال:

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصًا مِنَ الْأَذَىٰ
فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيًا

(تحريرًا في الساعة الثانية عشرة والنصف من نهار يوم الخميس: ٢٤/جمادى الأولى ١٤٤٠هـ، الموافق ٣١/يناير ٢٠١٩م).

* * *



المَنُّ والأذّى

كثيرٌ من الناس يرغبون في التصدّق والإنفاق في وجوه الخير، ويُخْلِصون في ذلك، ويَحْرِصُون على الجزاء من الله حتى تَسْعَدَ آخِرَتُهم؛ ولكنّ كثيرًا من الحريصين على الإنفاق يكون موقفهم من إنفاقهم في جهات الخير على عكس موقف النوع الأول من الناس؛ فهم يَوَدُّون من وراء الإنفاق أوالتصدّق حسنَ الثناء، وكثرةَ الذكر، والمدحَ العامَّ على ألسنة الناس، حتى تَكْبُرَ قامتُهم في نظرهم، ويُصْدِرُوا له شهادةَ «الرجل الطيب» أو «الرجل الصالح» أو «الرجل الفاعل الخير» أو «الرجل الصانع المعروف» أو «الرجل العطوف على الفقراء والمساكين» أو «الرجل المُوَاسِي لكل من لامُوَاسِيَ له» أو «الرجل المحبّ للدين وأهله».

إنّ الإنفاقَ صدورًا عن هذه العاطفة، يُفْسِد الصدقةَ، أو ما أنفَقَه الرجلُ في جهة أو جهات من الخير؛ لأن المُنْفِقَ إنما قام بالإنفاق رياءً، وكسبًا للثناء على أفواه الناس، فلم يَعُدْ له أيُّ نصيب من الأجر الذي يذخره الله للمُنْفِقِين من أجله وابتغاء رضوانه؛ لأنه نال ما نال من الثناء أو المدح، والإعجاب والتصفيق من الناس، فلم يَبْقَ له عند الله شَيْءٌ.

وهناك أناسٌ يَجْمَعُون بين الرياء والمنّ والأذى، في كل ما يتصدقون به ويُنْفِقونه على المحتاجين أو وجوه الخير والمصارف التي تقتضي التمويلَ والدعمَ الماليَّ، فهم يحوزون الشرَّين معًا، فيزدادون إثمًا مكان أن ينالوا ثوابًا. وكلُّ ما يكون نصيبُهم من إنفاقهم وبذلهم هو الثناء الكثير أو القليل العاجل الذي يذهب أدراجَ الرياح، ويضيع في الهواء، ولايكون له نصيب من البقاء والدوام.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤).

(البقية على ص١٠٠)

أبو أسامة نور
nooralamamini@gmail.com